

الحِرام

يوسف إدريس



الحرام

تأليف
يوسف إدريس



الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦/١/٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: +٤٤ ١٧٥٣ ٨٢٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره،
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس.

الترقيم الدولي: ٥١٥٩٤ ٥٢٧٣ ٩٧٨١

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة هنداوي سي آي سي.
يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو
إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على
أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك
حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

المحتويات

الحرام
خاتمة

٧
٩٣

الحرام

في تلك البقعة من شمال الدلتا، حيث يمتد التفتيش واسعاً عريضاً لا يكاد البصر يصل إلى مداه، كانت الدنيا تمرُّ بلحظة السكون التام حين يكون الليل وما فيه من نقيق وصرير قد ولَّ، وحين لا يكون النهار الكامل بأصواته وضجيجه قد أقبل بعدُ. سكون تام مُطِيق وكأنما ستقوم القيامة بعده، سكون جليل مهيبٌ تردد حتى أدق الكائنات في خَدِشِه، لم يكن يجرؤ على خدشه إلا نصف كرة أبيض كان يغوص في ماء الترعة ثم يطفو ليعود يغوص، مُحدِّثاً حَرَخَشَةً تتعالى وَتُدُوِّي في رحابة السكون. ظل هذا يحدث عدداً غير قليل من المرات، ثم حدث أن غاص نصف الكرة مرة وغاب أكثر من المعتاد، غير أنه لم يلبث أن طفا فجأةً مُخترقاً الماء في ضَجَّةٍ عظيمة. وهذه المرة وضَحَّ أنَّ لنصف الكرة جبهةً ما لم يُلْبِثْ أنَّ وضَحَّ أنَّ لها عينَيْنِ تُمَّ فمَّا، ثمَّ لم يلبث الوجه أن تكامل واستدار الرأس آخذاً طريقه إلى الحافة، وكلما تقدَّمَ ينحسر الماء عن رقبة، ثم جسد أبيض من الخلف كثيف السواد من الأمام، وقُربَ الحافة ظهرت الذراعان هزيلتين بالقياس إلى الجسم الضخم، ولكن على بطん الذراع اليمنى وشم فتاة ممسكة سيفاً وكتابة لو دققنا النظر فيها لوجدنا أنها لاسم، والاسم هو عبد المطلب محمد البحراوي.

خرج عبد المطلب من الماء، ومع أنَّ المنطقة بأسرها كانت خالية من الأحياء إلا أنه حين أصبح في العراء انتهى على نفسه، وضم يديه يخفي بهما عورته، وبسرعة كان قد ارتدى ملابسه، ملابس كثيرة مُهَرَّأةً يضمُّها جميعاً «بالطوط» سميك مهيب أصفر اللون ذو تاريخ حافل؛ إذ اشتراك في الحرب العالمية الأخيرة مع الحلفاء على هيئة خيمة، ثم انتهى كما ينتهي المحاربون القدماء إلى تلك النهاية.

وأخيراً صَلَّى عبد المطلب رَكْعَتَيِ الحاضر والسُّنة، ولَفَعَ الْبَنْدَقِيَّةُ ذات الرُّوحَيْنِ على كتفه، ومضى على جسر الترعة يَخْبُبُ في نعلَيْهِ المصنوعَيْنِ من كاوتش العربات.

وبينما كان ماضياً في طريقه إلى العزبة الكبيرة، فوجئ عبد المطلب بجسمٍ أبيض غريب يرقد على جانب من الجسر. وفرح عبد المطلب فهو – ككل الناس – ما يكاد يرى على الأرض شيئاً يختلف لونه عن لون الأرض إلا ويعتقد أنه عثر على «لقيمة»، ويُدْق قلبه بالفرح.

غير أنه حين بَرَّأَشَ بعينيه، وعبد المطلب مع أنه خفير إلا أنَّ نظره على قَدْه خاصَّةً في الضوء، ما كاد يرى الشيء حتى تَسْمَرَ في مكانه مذعوراً ومضى يصرخ: الله حي، الله حي، الله حي.

ذلك أنَّ الشيء لم يكن إلا جنيناً حديث الولادة.

دق قلب عبد المطلب دقة عالية واحدة كالطفلة، ثم انزوى يلهث في صدره ويرتجف؛ فهو «صحيح» خفير، ولكن ما يراه أمامه الآن شيء مختلف تماماً عن اللصوص وقطاع الطرق؛ ولهذا فقد كان أول ما فَكَرَ فيه أن يُطلق ساقيه للربح ويجرى؛ إذ للوهلة الأولى اعتقد أن ما أمامه عفريتُ ابن جنِّيَّةَ، ما في ذلك شك.

غير أنَّ عبد المطلب لم يجر، بل وجد نفسه بعد ثوانٍ يقهقه قهقهةً عاليةً أعلى من أي قهقهة أخرى أطلقها في حياته؛ إذ كان يضحك على نفسه، فقد أدرك بطريقه ما أن ما أمامه ليس عفريتاً أو شيئاً من هذا القبيل، ولكنه رَضِيَّعُ ابن حرام على وجه الدقة، وما كاد يتَبَيَّنَ هذا حتى قهقهة؛ فقد تَصَوَّرَ لأمرٍ ما أَيْضًا أنَّ الجنين الذي يراه الآن هو ثمرة لليلة الماضية التي قضاها مع زوجته، ولدته بعد أن غادرها ليستَحِمُ في الترعة ويَتَطَهَّرُ، ثم أَلْقَتْ به في الطريق.

كان الخاطر لا معنى له؛ إذ من غير المعقول أن تحمل زوجته وتلد جنِّيَّاً كاملاً في نفس الليلة، ولكنه فَكَرَ فيه؛ فالإنسان وهو مروع قد يقف عقله ويَهُرُب بجسده، أو قد يحدث العكس فَيَتَسَمَّرُ بجسمه في مكانه ويَهُرُب بعقله، والعقل في جريانه المفروز لا يَتَقَيَّدُ بأي معقول.

وعلى أية حال لم تَطُلْ قهقهة عبد المطلب؛ إذ قطعها عليه إحساسه المفاجئ بالمسؤولية، ومع أنَّ البقعة التي وجد فيها الرضيع ليست من اختصاصه؛ إذ هي من اختصاص خفير الجن، إلا أنَّ بعض الناس أحياناً لا يكادون يجدون ثمة خطأ حتى يلصقونه بأنفسهم ويحس الواحد منهم أنه هو المسؤول عنه، ويبداً يدافع عن نفسه ليتبرَّب من المسؤولية. وهكذا ظل عبد المطلب واقفاً أمام اللقيط يدبر في رأسه خطط الدفاع عن نفسه أمام الناس وأمام مأمور التفتيش وـ لا قدر الله – أمام النيابة والمحاكم، وبينما عبد المطلب يفعل

هذا كان قوس الشمس الأعلى قد بدأ يصفرُ ويبيضُ ويحجب الأفق مستكشفاً، وحين اطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام بربت من ورائه الشمس بحجمها الأحمر الهائل، ومع بروزها بدأت الدنيا تُزهِّزه وتدعى الكائنات إلى اليقظة والعمل، وبدأ أبو قردان يصرخ ويرفرف، وبدأ الناس يظهرون، أفراداً متناثرين أول الأمر قادمين من الجامع بعد الصلاة، أو آخرين طريقهم إلى الترعة يغسلون جوهرهم ويستحمون.

ومع زهرة الدنيا كان عقل عبد المطلب هو الآخر قد بدأت تعود إليه رباطة جأسه وبدأ يفتح، وكانت فكرةً ما قد وادته بعد أن فشل في تخلص نفسه من المسئولية: لم لا يُلقي باللّفافة في الترعة ولا من شاف ولا من يري؟ وتردد برهة بعد آه، وله، ثم لم يلبث أن تقدّم من اللّفافة باحتراسٍ زائد.

في تلك اللحظة فوجئ بصوتٍ حَشِنَ كفرع السُّنْط يقول: أصباح الخير يا عبد. وحملق فيه عبد المطلب بعينيه العَمَشَاوين، فقد كان عبد المطلب أَيْضَأَ عَمَشَ زَادَ عيون صغيرة ضيقَة لا ترى إلا في الليل، حملق فيه وقال جملته المشهورة عنه: إخص ع الناس، الله يكْسِفُ!

كانت كلماته تخرج ملفوقةً في سحابات صغيرة من بخار الصبح، وكان القادم «عطية» الذي لا يدرى أحد متى جاء إلى التفتیش ولا من أين جاء، ولم يكن له عمل معروف حتى في أثناء إقامته في التفتیش، لا ولم يكن له محل إقامة؛ فهو ينام حيثما اتفق، تراه على الدوام مُمسكاً نذل قميصه من الخلف، مُظهراً سيقانه الخالية من الشعر، فاتحا عيناً مغلقاً الأخرى مُحدقاً في مُحدّثه بوجهه النحيف الرفيع الذي لا يطمئن إليه أحد.

ظللت ذرات البخار تخرج من فم عطية لتردّ عليها ذرات بخار خارجة من فم عبد المطلب، وأيديهما تشير مرة إلى اللّفافة ومرات إلى الترعة والناس والعزبة والسموات العلا إلى أن انضم إليهما الأسطي محمد. والأسطي محمد رجل الحادثات بلا منازع؛ ما من واقعة مُهمة تحدث في التفتیش إلا ويكون هو أول من يحضرها، ولا يدرى أحد كيف تصل إليه أخبارها، ولكنك حتماً سوف تجده. هو عجوز تَعَدُّ السبعين ذو لحية نابتة بيضاء وشعر أشيب وعين يُسرى لا يرتفع عنها جفنه المغلق على الدوام. كان أسطي ماكينات في التفتیش، وحين كَبَرَ على العمل فصلوه، ومع هذا فأحياناً يعهدون إليه بمهامٍ مثل إيقاد الوابور الذي يدير ماكينة الدرسِ أو السهر بجوار طلمبة مياه، ولكنه على أية حال لا يزال يُلْقَبُ بالأسطي، ولا يزال رجل الحادثات، ورأيه فيها لا يزال هو الرأي السديد، وهذه المرة

ما إن عرف ما حدث، ورنا إلى الجنين بعينه اليماني حتى قال: ده مش ميت يا عبد، ده مخنوق.

واستنكر عبد المطلب هذا، ولكن الأسطى محمد ما ليث أن أقنعه وهو يشير إلى زرقة الجسد واحمرار ما حول الأنف والفم، طالباً منه أن يخلص نفسه من المسؤولية ويبلغ أمور الزراعة؛ إذ هو الوحيد الذي يمكنه التصرف في أمثال هذه الأمور. ويبدو أن عبد المطلب اقتنع، فما ليث أن مصمص بشفتيه، وقال: أيوه: أحسن طريقة نبلغ المأمور.

قال هذا دون أن تصدر سحاب بخار عن كلماته، فالشمس كانت قد بدأت تبيض، والأجساد قد بدأت تَسْخُن والندى أخذ يزول.

ولا أحد يدري كيف تَسَرَّب الخبر إلى العزبة؛ فالثلاثة الواقعون أصبحوا سِتَّة، وما أسرع ما تجمهر حولهم الشَّغْلَة السارحون إلى الغيطان وفُؤوسهم على أكتافهم وغداوهم في مناديلهم، وما ليث أن انضمَّ إليهم عُمال ماكينة الدُّرَاس والمزارعون وبعض الأطفال الذين أيقظهم آباءِهِم مُجَرَّبين لزيروا وَخَم النوم ويغسلوا وجوههم في التُّرْعَة. حتى النساء كُنْ يَتَرَكُنْ ما في أيديهنَّ من عجين أو خبز أو طين ويسعن ملهوفات إلى الخليج، ويُلْوِّنُنَّ الرجال وهن يدفعنَّهم ويُفْرَقُنَّهم ليَرِيَنَ ما هناك.

كل قادم كان يريد رؤية ابن الحرام هذا الذي مات لِتَوَهُ، فإذا ما زاحم وزاحم حتى وصل إليه وحَدَّق فيه وملأ عينيه من البشرة البيضاء التي ازْرَقَتْ وكادت تَسُودُ، والرأس الصغير وما حوله من مَشِيمَة ودماء، ما إن يرى كل ذلك حتى يُدِير ظهره ويَقْفَلَ راجعاً، وقد امتَلَأَتْ نفسه وملامحه بمزيج قابض من الرهبة والغثيان.

وجاء مأمور الزراعة في النهاية، وسبقته الأيدي تدفع الواقعين وتفسح له الطريق، وكان فكري أفندي المأمور لا يقل رغبة في رؤية هذا الحادث - الجديد عليه وعلى العزبة - عن أيِّ من الواقعين، ولكن كان حريصاً في الوقت ذاته على لا يُفْقَدُه ذلك الشغف هيبته. فما إن قارب المترافقين حتى مَدَ يده وأحكِمَ اعوجاج طربوشة فوق رأسه، ثم اكتست ملامحه السمراء طابع الجِدِّ، وعَقَصَ رقبته في صلف كما يجب أن تكون عليه حين يراه الفلاحون، ثم وقعت عيناه على المشهد، ولم يُلْطِح هذه المرة في إخفاء ما اعتراه هو الآخر من رهبة وغثيان. بل بدت واضحة تمام الوضوح على وجهه وتَقْلِبات شفتيه، ثم استدارته على الفور إلى حيث يستطيع مغادرة المكان والابتعاد عنه.

وتبع المأمور في ذهابه الخُولي وخفيه الري وطنطاوي والأسطي محمد ونفر قليل من «التملّية» والشغيلة، ساروا صامتين واجمدين، والمأمور يبصق تارةً في منديله الأبيض المكُور وتارةً على قش الطريق المُبتل.

وكان من الممكن أن تنتهي مهمة فكري أفندي المأمور عند هذا الحد؛ فهو «صحيح» مسئول عن كل كبيرة وصغيرة تحدث في التفتيش، إلا أنَّ العثور على لقيط ميت أو مقتولٍ ومحاولة العثور على قاتله مسألة لا تدخل في اختصاصه بالمرة.

وذلك فعلًا ما كان يدور في رأسه، وهو يمشي الهويني في الطريق إلى مباني إدارة التفتيش، وخلفه ذلك الجمع الصغير، غير أنَّ حب استطلاع ما بدأ يراوده، تُرى ابن من هذا؟

التفتيش مُكون من عِزبٍ، كل عزبة لا تَتَعَدَّ بيوتها الثلاثين بيتاً، وهذا اللقيط وُجد على خليج العزبة الكبيرة المُقامة بجوار سراية أصحاب الأرض والإدارة، حيث الإصطبات والجُرُن والمخازن وجراجات مَكَنَ الحَرث. لا بدَّ أنَّ اللقيط ابن لواحدة من أبناء هذه العزبة الكبيرة أو بناتها، والعزبة يكاد يَعْرُف نساءها وبناتها بالواحدة، تُرى أيُّهن هي التي فَعَلت هذه الفعلة؟ وتُرى كيف فَعَلتها؟ فكري أفندي طالما سمع في القصص والحوادث عن أولاد الحرام، وأحياناً كانت تَبَلُّغُه فضائح مثل هذه كأخبارٍ ليس إلا عن أناس لا يُعرفُهم ولا يُدرِّي أشكالهم ولا ماذا يَكُونُون. وفي أعمق أغواره — وحتى لو كان قد قرأ الخبر في جريدة المُقطم نفسها التي يؤمن بكل كلمة تقولها — فإنه كان يجد نفسه لا يكاد يُصدِّق الخبر، لا يكاد يصدق أنَّ أحداً كبيرة شناعه حراماً مثل هتك العرض أو الحمل سفاحاً ممكناً أن تحدث فعلًا. ولكنه رأى اليوم بعينه جسم جريمة كاملاً ميتاً يكاد يمد إصبعه، ويُضَعُّها في عين كل من لا يُصدِّق. كانت أحاسيس غريبة تلك التي تَملَّكته، وهو واقف يُحدِّق في اللقيط، وكأنه يرى الشيء الحرام الذي كان يأبى أن يُصدِّق وجوده، أو استحالة إقدام الناس على فعله، يراه أمامه مُجسداً راقداً على حافة الخليج، أحاسيس كثيرة عصفت به، الحرام إذن موجود لدى الناس، أحياناً لا يستطيعون إخفاءه، ولكنه أحياناً يهزمهم وينتصر على رغبتهم في إخفائه، ويظهر متبلوراً في لقيط مُسجّى أو في بطْن منفوخ. الحرام — الذي كُنْتَ تسمع عنه يا فكري أفندي ولا تُصدِّقه — موجود، وأمامك الفرصة مُواتية لترى فاعلته كما رأيته.

تلك في الواقع هي الفكرة التي كانت تُلح على خاطره في أثناء رجوعه إلى مبني الإدارة. تُرى كيف تكون فاعلة ذلك الحرام؟ أو على وجه الدقة كيف تكون الزانية؟ ما من مرة ذُكرت أمامه الكلمة إلا واقتصرَ بدنَه، مع أنه كان له — مثلما لمعظم الناس — علاقاتٌ قبل أن يتزوج حتى بعد أن تزوج. ولكن كأنما كان يُستبعد أن توجد نساء في العالم يخطئن مثلما تخطئ النساء معه، وكأنما من أخطاؤه لسن زانيات، الزانيات هُنَّ من يُخطئن مع غيره.

تُرى كيف تكون تلك المرأة، وهل تكون جميلة، وهل تُشبه الغوازي، وهل هي مثل سائر النساء أو لا ريب تُنفرد بألعاب وحركات وتأدُّبات هي التي جعلت ذُنُبَّاً من الرجال يُستفرد بها ويُفعل معها الحرام؟

وقف فكري أفندي في منتصف المسافة بين الخليج وبين الإدارة واستدار، واستدار الجمع الذي خلفه لاستدارته، وراح يستعرض العزبة الكبيرة أمامه: بيوتها الداكنة والدخان الذي كان قد بدأ يتصاعد من الخروق الكثيرة في سقوفها. على رأس العزبة يقع بيت مسيحة أفندي الباشكاتب وبجواره بيت أحمد سلطان الكاتب، الشاب الأشقر ذي الطربوش الغامق المُعوج وبالبلطه الأسود النظيف، الولد الشاب الحلو الذي طالما ضُبط وهو يَغمز بنتاً من البنات الفائزات الكبيرات اللاتي كُنْ أحياناً يُعذّون للعمل في التفتيش، وغَمْزته دائمًا ما كانت تُكهرِّب البنت منهن حتى لتجعل ثدييها يَقْفزان في الهواء، ولكنها لا يبحث عن قد يصلح ليكون الأب، هو يبحث عن الأم، فهو مُستعد أن يُصدق الحرام في الرجال، ولكنه — لأمرٍ ما — يصعب عليه أن يُصدق الحرام في النساء. الرجل دوره في الحرام طيّاري أما المرأة فدورها أساسياً. هو يبحث عن الأم. وفي بحثه هذا لم يترك أحداً، حتى امرأة الباشكاتب الست أم لنه تناولها بحثه، ولكنها كانت في زيارة لزوجته في الأسبوع الماضي، ولم تكن أبداً حاملاً. ومن بيت إلى بيت تتنقل عيناه، ببيوت المزارعين الكبار الذين لدى الواحد منهم أكثر من ثلاثة أزواج من البهائم، وببيوت التَّمَلِّية الذين لا يملك الواحد منهم إلا فأسَه. ونساء العزبة جميعاً يَمْرُّنَ أمام عينيه: التي يعرفها تماماً والتي لا يكاد يعرفها، التي لها ضحكة وابتسامة والتي لها قمطة حمراء أو جلابية فاقعة الألوان، البنت والعانس والعازبة والمطلقة والمشكوك في أمرها التي استجابت لهزارة مرة والتي خجلت ولم تستجب. ولم تتوقف أنظار فكري أفندي عند بيت من البيوت ولا عند واحدة بعينها من النساء، فلا أحد في العزبة يُستخَبَّى، النساء كلهن يَخْرُجُنَ حتى من غير أن يرتدن «الملس» الأسود فوق ثيابهن الملونة، وكلهن معروفات، لم يُلاحظ أحدٌ على واحدة غير متزوجة حملًا أو انتفاح بطن، لا يمكن أن تكون إداهن هي أم ذلك اللقيط، مستحيل.

وأفاق المأمور من تأمله الطويل للعزبة ومن فيها ودار بعيتنيه على وجوه الرجال
القليلين الملتقيين حوله، وكان يتوقف هنيهة عند كل وجه ويُحْمِلِق، وعند كل توقف كان
يُصْفِر وجه؛ إذ يكاد صاحبه يشك في براءة نفسه ويُكاد يصعّه أن تطول تحديقة المأمور
فيفيه مرة ثم يشير إليه قائلاً: أنت.

ولكن إدارة المأمور لوجهه وعيئه كانت إمعاناً في التفكير ليس إلا وثبتاً من وجاهة الرأي الذي استقر عليه.

وأشار فكري أفندي فجأة بالخizرانة التي كانت معه، وأشار إلى الفضاء الكائن خلف الصطبات وقال: لازم واحدة من دول.

وَتَطَلَّعَتِ الْعَيْنَ وَالْقُلُوبُ إِلَى حِيثُ يُشَيرُ، وَجَاءَهُ الْجَوابُ مِنْ أَكْثَرِ الْوَاقِفِينَ وَكَأْنَهُ فَرَحَةُ الْبَرَاءَةِ: هُمْ، مَا فِي شَيْءٍ غَرَبُهُمْ، وَدِي عَابِرَةُ كَلَامٍ؟ دُولٌ غَرَابِيَّةٌ وَلَا دُكْلَكَلَّ.

قالوا هذا وتحفزوا جمِيعاً لأَيْ إِشارة تصدر عن المأمور.
غير أَنَّ المأمور لم يُشرِّشْعِعَ، فقد عاد إلى حذائه الكالح بُحْدَّهُ، فيه وعادت عصاوه

الخيزران تعبث برباط حذائه أحياناً وبالقش أحياناً أخرى.
ثم قال: ولا يمكن البت نبوة.

قال صالح الخولي وقد غَيَّر رأيه على الفور: وما يمكنني ليه؟ دي تاجرة بيض ولعنة.

وقال الأسطي محمد: دي بقالها عازبة زمان، حد عارف؟! يمكن. أستغفر الله العظيم.
وقال عبد المطلب الخفري: والله ما في غرها.

غير أنَّ المأمور لم يُمهلهم، ما لبث أن استدار ومضت عيناه تتأرجحان حتى استقرَّتا عند الفضاء الكائن خلف الاصطبلات وقال: أبدأ! هُم دول ما فيش غيرهم.

وغمغم الواقفون حوله بلعنون الغرابة وبيؤيدون:

والغرابة ليسوا من قاطني التفتيش، ولا يمكن لأحد أن يتصور أنَّهم من قاطني التفتيش؛ إذ أليسو هم أكثر الناس فقراً في بلادهم الذين يدفعهم الفقر إلى اللجوء إلى العمل في التفتيش البعيدة، وتَرَكُ دُورهم وَقَرَاهُم سعيًا وراء يومية لا تتعدي القروش القليلة؟ أليسو هم ذوي الأسماء البالية والرائحة الغربية، والخلقة الكريهة؟ لا يمكن لأحد أن يتصور أنَّاساً كهؤلاء من قاطني التفتيش، فقاطنو التفتيش كلهم مزارعون محترمون، لكل منهم بيته وأولاده وبهائمه وحلياه النظيف الجديد الذي يرتديه بعد انتهاء العمل

ليس هرّ به في القهوة والأفراح، وليس بين قاطني التفتيش عاطل، فالعزب مبنية بحيث تستوعب المزارعين كلهم، وكأنما هي مصنع كبير يُخصص جزء منه لسكن عماله، وعلى هذا فهم جميعاً يعملون، وهم جميعاً معهم نقود، والزوجة تدخل على زوجها بسرير دولاب وأطباق صيني وأحياناً بماكينة خياطة. والعمل ليس مرهقاً إلى الدرجة التي لا يتصورها العقل، فالري بماكينات، والحرث بأتومبيلات، والدرس بماكينة كبيرة جدّاً تحتل وحدها نصف الجُرن. وصحيح أن التفتيش يأخذ معظم ما تنتجه الأرض، ولكن يبقى لل فلاح ما يسّره، ويكسوه، ويطعنه، ويجعله حتماً ينظر إلى الغربوبة هؤلاء نظره إلى نفّاية بشرية جائعة، مُضطربة إلى الهجرة كي تعمل وتأكل وتتال حظاً من الحياة. حتى اسمهم لم يتفق عليه أحد، رجال الإدارة يسمونهم «الترحيلة»، وال فلاحون يسمونهم «الغربوبة»، أما هؤلاء الذين تعودوا «المقلّة»، والتّريقة فيسمونهم «الجلب جل الجشج عنه ما جلو يا سيد عنجلو»، ومعناها «الكلب كل الكشك عنه ما كلوا يا سيد (السيد البدوي) عنقلو»، إذ هكذا ينطّقون الكاف، وهكذا يحتقر فلاحو التفتيش كافهم ولهجتهم وحتى مجرد وجودهم على أرض تفتيشهم.

أما الغربوبة أنفسهم فقد كانوا لا يقيمون وزناً كبيراً لـتريقة الفلاحين أو نظرتهم، وكأنما هم معترفون أنهم غربوبة وأنهم ترحيلة وأنهم أي شيء قد يخطر على بال إنسان. فما دام الواحد منهم قد حظي بمكان في الترحيلة وضمن أن يعمل أكثر من ثلاثة شهور كل يوم وبأجر، فليقل عن القائلون ما شاءوا.

والقطن يُزرع في أواخر الشتاء، وما إن تولّ طوبة حتى تكون بذوره قد تَشَقّقتْ واختَرقت الأرض السمراء ونبت لكل بذرة جذر ونما لها ساق، وحين تَكُبُر العيدان فتغطي المساحات الواسعة السوداء بطبقة خضراء جميلة ريانة، ويحل أوان الدودة ولطعها، حينئذ يدور الجدل حول الترحيلة، يكتب فكري أفندي خطاباً للإدارة في مصر والإدارة تردد بخطاب، ثم يأتي الإذن، ويأتي المبلغ، ويستيقظ فكري أفندي ذات يوم مبكراً، ويأخذ أول قطار ويُغْيِّر في طنطا، ثم تحمله عربة أومنيبوس «لا ينسى أن يُقْيِّدها في كشف الحساب عربة أجرة» إلى قرية من قرى المنوفية أو الغربية، غير مهم؛ ففكري أفندي يعرف قرى كثيرة ومقاولين كثيرين، قرّى يُسمّيها هو عُش النمل، فالناس فيها كثيرون أكثر من اللازم، أكثر من العمل المطلوب والطعام الموجود، وكلهم — والله الحمد — فقراء، فقراء إلى الدرجة التي كان فكري أفندي نفسه يَهُز رأسه حسراً حين يراهم في بلادهم، وكيف يعيشون. المهم حالما يضع قدميه في بلدتهم ينتشر خبر وصوله بطريقة سريعة غامضة خفية، فيتجمع

منهم مئات ويَكُونون موكبه، يَسِرون أمامه وخلفه وعلى جانبيه ويَرْمُونه في تَدْلِه وأَمْلِ وكانَ لدِيه أَجْوَلةً أَعْمَار سِيْفِرَقْها عَلَيْهِمْ بَعْدَ حِينَ، يُحْيِونه ويَتَهَافِتونْ عَلَى لَسِنِه وَلَفِ نَظَرِهِ، وَالشَّاطِرُ مَنْ يُسْلِمْ عَلَيْهِ وَيُقْبِلُ، وَيَدِلُهُ أَلْفُ عَلَى بَيْتِ الْمَاقُولِ مَعَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي حَاجَةٍ إِلَى دَلِيلٍ، فَمَنْ أَعْوَامٌ وَهُوَ يَهْبِطُ الْقَرْيَةَ، وَالطَّرِيقَ إِلَى بَيْتِ الْمَاقُولِ فِي قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ كُتُلَكَ لَا يَمْكُنُ أَنْ يَضْلِلُ فِيهِ إِنْسَانٌ كَفَكَرِيْ أَفْنِدِيْ حَبَّاهُ اللَّهُ عَقْلًا وَمَعْرِفَةَ وَطَرْبُوشَا وَنَابَا أَزْرَقَهُ، هُنَاكَ يَجِدُ الْمَاقُولَ وَاقْفَانًا عَلَى عَتَبَةِ الْبَيْتِ، إِنْ لَمْ تَكُنْ ضَجَّةَ قَدْوَمِهِ قَدْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ أَوْقَفْتَهُ عَلَى عَتَبَةِ الشَّارِعِ، وَسَلَامَاتٌ تَدُورُ مِنَ النَّوْعِ الْثَّقِيلِ، وَلَا بَأْسَ مِنْ دَمْعَةٍ تَفَرِّي مِنْ عَيْنِ الْمَاقُولِ حَسْرَةً عَلَى الْأَيَّامِ الْحَلَوةِ الَّتِي مَضَتْ، وَيُصْرِرُ الرَّجُلُ عَلَى أَنْ يُنَادِي فَكَرِيْ أَفْنِدِيْ بِحَضْرَةِ الْمَفْتِشِ، وَيَخْجُلُ فَكَرِيْ أَفْنِدِيْ وَيَتَوَاضَعُ وَيَقُولُ: يَا سِيَّ الْحَجَّ، وَتَطْبِرُ رَقَابُ الْكَثِيرِ مِنَ الْحَمَامِ وَالْبَطِّ، وَيَأْكُلُ الْمَأْمُورَ وَيُحْلِي وَيَضْطَجِعُ، وَيَحْتَسِي الْقَهْوَةَ وَيَنْفَثُ فِي تَلَدُّدِ دَخَانِ السِّيْجَارَةِ الَّتِي عَزَمَ عَلَيْهِ بَهَا الْمَاقُولُ وَأَقْسَمَ بِالْطَّلاقِ أَنْ يُدْخِنَهَا، بَيْنَمَا الضَّجَّةُ خَارِجُ الْبَيْتِ تَزَدَّادُ، وَالنَّمَلُ الْكَثِيرُ يَخْرُجُ مِنْ جَهْوَرِهِ، إِذْ قَدْ جَاءَ الْأَمْلُ فِي الْعَمَلِ، يَخْرُجُونَ مِنْ جَهْوَرِهِمْ وَيَتَعَانِقُونَ أَمَامَ الْبَيْتِ وَيَتَصَايِحُونَ: جَاءَ الْفَرْجُ يَا أَوْلَادَ وَالْأَشْيَا حَتَّى مَعْدَنِ.

وَيَتَنَاقِشُ الْضَّيْفُ وَالْمُضَيْفُ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا حَوْلَ «الْفَيَّةَ» أَوِ الْجُعْلِ، الْمَأْمُورُ يَقُولُ النَّفَرَ بِسَبْعَةِ قَرْوَشٍ، وَقَرْشٌ «فِيَهُ» يَبْقَى بِوَاقِعِ ثَمَانِيَّةٍ، وَيَصْرِرُ الْمَاقُولُ عَلَى عَشَرَةَ، وَيَقُولُ الْمَأْمُورُ: تَبَقِّي مَكْشُوفَةً قُدَّامَ أَصْحَابِ الْأَطْبَانِ.

وَيَنْتَهِي الْأَمْرُ رُبُّمَا إِلَى تِسْعَةَ، وَيُخْرُجُ الْمَأْمُورُ حَافِظَتِهِ، وَيَشْعُرُ بِالدَّفَعَةِ وَالْفَجِيْعَةِ وَالْأُورَاقِ الْكَبِيرَةِ الْخَضْرَاءِ ذَاتِ الْمَادِنَةِ تَلْمِسُ يَدَهُ بِالْكَادِ لِيَعْدُهَا ثُمَّ تَخْتَفِي فِي كَيْسِ الْمَاقُولِ الْمَصْنُوعِ مِنَ الْكَتَانِ وَالْمَرْسُومِ عَلَيْهِ هَلَالٌ وَثَلَاثَةِ نَجُومٍ مَكْتُوبٌ تَحْتَهَا — وَلَا أَحَدٌ يَدْرِي لَمْ؟ — الْحُكُومَةُ الْمَصْرِيَّةُ، وَمَا يَكَادُ هَذَا يَحْدُثُ حَتَّى يَتَفَرَّقَ الْمُنَادِونَ الْمُتَطَوِّعُونَ فِي الْبَلْدَةِ: النَّفَرُ بِسْتَةٌ يَا أَهَالِيِّ، وَالْقَبْضُ عَلَى خَمْسَتِشَرِ يَوْمٍ، وَالْغَایِبُ يَلْعُمُ الْحَاضِرِ.

مَعَ أَنَّهُ لَا تَكُونُ هُنَاكَ حَاجَةٌ إِلَى مُنَادِيَنَ أَوْ نَدَاءَ، فَجَمِيعُ «الْأَهَالِيِّ» مُوجَدُونَ مُتَزَاحِمُونَ عَنْ بَيْتِ الْمَاقُولِ فِي الْحَارَةِ وَعَلَى الْأَسْطَحِ الْمَجاوِرَةِ وَأَمَامِ الْأَبْوَابِ.

وَيُصْبِحُ الصَّبَاحُ وَتَأْتِي خَمْسَ مِنْ عَرَبَاتِ النَّقْلِ الْكَبِيرَةِ ذَاتِ التَّصَارِيْحِ الْخَاصَّةِ بِنَقْلِ الْأَنْفَارِ «مِثْلُهَا مِثْلُ التَّصَارِيْحِ بِنَقْلِ أَجْوَلَةِ الْأَرْزِ أَوِ الْمَوَاشِيِّ» تَحْمِلُ كُلُّ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْ مَائَةَ نَفَرٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالْبَنَاتِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ وَتَحْمِلُ أَيْضًا صُرَرَهُمْ وَقُفَّهُمْ وَقَدْ مَلَئُوهَا لَآخِرِهَا بِزَوَادَةِ الْعِيشِ وَزِلَّاعِ الْمِشِّ وَالْجَبَنَةِ، تَحْمِلُهُمْ فِي كَتْلَةٍ ضَخْمَةٍ مُتَرَاحِمَةٍ لَا تَكَادُ تُمِيِّزُ فِيهَا الرَّجُلُ مِنَ الْمَرْأَةِ وَلَا الْوَلَدُ مِنَ الْبَلَّاصِيِّ. وَمَعَ اِنْطَلَاقِ الْعَرَبَاتِ تَنَطَّلُقُ الْحَنَاجِرُ الْمُتَلَاصِقَةُ

المحسورة تُغْنِي وتُضْحِك ويصل زعيقها الفرحان إلى عنان السماء، بينما العيون، عيون المرضى والعَجَزَة وكل من لا يستطيع حمل الفأس أو حتى الظهر، عيون المُتَخَلِّفِينَ الرايَّدِينَ عن المطلوب، ترقب الموكب المنتصر، الموكب الدالِّ إلى العمل والأَجْر ولقمة العيش، ومُلَأَ الصدرَ أَنفاسَ، تَرَقُّبَهُ في عَجَزٍ باِكٍ وحسرة، وربما كلمة ذليلة يتصدق بها الجار على جاره: الصبر.

وتُعلن العربات قدوتها إلى التفتيش بسَحَابَاتِ غبارٍ ضخْمٍ تثيرها وتملأ بها الأفق، ومع هذا فقليلًا ما يسترعى ذلك القدوم انتباه من في التفتيش إلا أن يقف أحدهم ويراقب العربات القادمة ويقول لمن يتصادف وجوده وهو يضحك ساخراً: الجلب جل الجشج عنه ما جلو.

وهنالك خلف الإصطبل يَرَضُّ الغرابوة مقاطفهم صفوّاً وراء صفوف، وينطلقون إلى الجُرُن والأَرْض المجاورة يجمعون قَشَّ الأَرْز والأَحْجَار ويصنعون منها مواد وأُفْرَشَة.

وقبل شروق شمس اليم الـتالي تطفح في الجو رائحة المش وقد فتحتْ أوانيه، وبين الحين والـحـين تسمع خشخـشـة بصلة تـتـكـسـرـ وـهـمـهـاتـ وـصـرـخـاتـ بـنـتـ لم تـجـدـ زـوـادـتهاـ، وأصـواتـ خـيـزـرـانـةـ الرـئـيـسـ، وـهـيـ تـنـدـقـ عـلـىـ قـفـةـ أـحـدـهـمـ دـقـاـ مـلـحـاـ مـتـوـاـصـلـاـ يـسـتـعـجـلـ بـهـ إـنـهـاءـ الطـعـامـ وـالـسـيـرـ، وـلـاـ يـلـبـثـ الدـقـ أـنـ يـنـتـقـلـ مـنـ الـقـفـفـ إـلـىـ الـأـفـقـيـةـ وـالـأـجـسـادـ، وـلـكـنـ أـيـضـاـ لـاـ يـتـعـدـىـ الدـقـ، ثـمـ يـصـرـخـ الرـئـيـسـ، وـحـيـنـئـذـ تـقـومـ التـرـحـيلـةـ فـيـ كـتـلـةـ ضـخـمـةـ غـامـقـةـ اللـوـنـ، لـاـ تـلـبـثـ أـنـ تـتـبـعـهـاـ مـفـرـدـاتـ مـتـنـاثـرـةـ، وـيـكـونـ مـوـكـبـهـمـ أـوـلـاـنـدـ يـضـعـ أـقـدـامـهـمـ فـوـقـ المـشـاـيـةـ الـتـيـ خـتـمـهـاـ النـدـيـ، وـتـشـرـقـ الشـمـسـ وـكـلـ مـنـهـمـ قـدـ تـسـلـمـ خـطـاـ، وـلـاـ بـدـ ظـهـرـ كـلـ مـنـهـمـ مـهـنـيـ وـعـيـنـاهـ عـلـىـ الـلـطـعـةـ.

وـقـبـلـ كـلـ غـرـوبـ يـزـدـحـمـ دـكـانـ جـنـيـدـيـ «ـأـبـوـ» خـلـفـ وـهـوـ الدـكـانـ الـوـحـيدـ فـيـ الـعـزـبةـ الـكـبـيـرـةـ، يـزـدـحـمـ بـالـأـطـبـاقـ الـفـخـارـ وـالـأـيـديـ الـجـافـةـ الـمـدـوـدـةـ وـالـأـصـوـاتـ الـتـيـ جـرـحـتـهـاـ عـيـدـانـ الـقـطـنـ، وـهـيـ تـطـلـبـ فـيـ إـلـحـاحـ وـبـلـهـجـتـهـاـ الـغـرـابـوـيـةـ الـمـعـوـجـةـ، بـتـلـاتـةـ مـيـلـمـ زـيـتـ، بـمـيـلـمـ مـلـحـ، بـرـبـعـ قـرـشـ عـسـلـ، بـتـعـرـيـفـةـ دـفـرـ بـافـرـةـ، وـيـسـبـ جـنـيـدـيـ الـغـرـابـوـةـ وـالـيـوـمـ الـذـيـ جـاءـوـاـ فـيـهـ وـلـكـنـهـ يـبـيـعـ، وـيـلـعـنـ آـبـاءـهـمـ وـبـيـعـ، وـتـكـوـنـ فـيـ دـرـجـهـ الـمـزـيـّـتـ مـلـاـلـيـمـهـمـ الصـدـيـّـةـ وـنـكـلـهـمـ، كـلـهـاـ مـلـاـلـيـمـ وـنـكـلـ، وـأـكـبـرـ قـطـعـةـ فـئـةـ عـشـرـةـ مـلـيـمـاتـ، وـفـيـ الـغـرـوبـ تـمـاـمـاـ وـقـبـلـ أـنـ تـظـلـمـ الـدـنـيـاـ، تـخـتـلـطـ خـلـفـ الإـصطـبـلـ رـائـحةـ الـزـيـتـ الـمـقـدـوـحـ بـرـائـحةـ السـمـكـ الصـغـيرـ الـمـشـوـيـ بـرـائـحةـ الـجـبـنـةـ الـقـدـيـمـةـ وـالـعـدـسـ وـالـبـصـلـ وـالـصـابـونـ الـفـنـيـكـ، تـخـتـلـطـ الـرـوـاـيـحـ فـيـ مـزـيـجـ نـافـذـ غـرـبـ مـكـوـنـةـ رـائـحةـ خـاصـةـ، مـنـ شـدـدـةـ دـلـالـتـهـاـ وـنـفـاذـهـاـ يـسـمـيـهـاـ الـفـلـاحـوـنـ رـائـحةـ التـرـحـيلـةـ. تـتـصـاعـدـ الـرـوـاـيـحـ

وتفتح البلاليس، ويوضع كل ما استطاعت اليه انتزاعه من الغيط، فجل أو سريس أو جلاوين أو خنشير، وتحشى البطون بكل هذا كما تُحشى الأجوة بالقش، بينما الصمت يسود المكان، صمت لا يُسمع خلاه إلا أصوات التشدُّق بلُّق العيش، وأصواتٌ بعيدةٌ ملائعة قليلة تصطدم بالأواني النحاسية وتقلع منها ما التصق بقاعها من حبات أرز.

وتحمل الريح الضّجة والرائحة إلى العزبة الكبيرة وقاطنِها، فتنطلق النكات وتنصاعد القهقَّهات ويزداد الناس إيماناً بأنهم — حقاً وصدقاً — نُفَایَة بشرية مُنْحَطة، أولئك الناس الذين يدعونهم الترحيلة.

طمس فكري أفندي الدائرة التي كان قد رسمها بعصاه على تراب الأرض، ووضع في وسطها نقطة وأخرج منها خطوطاً إلى محيط الدائرة، بل دار بقدميه عليها حتى لم يبق منها سوى النقطة وقد خرجم منها خطوطاً مبتورة، لم تكن لديه حُطة واضحة، فحتى مع افتراض أنه قد حدد أنَّ الفاعلة من الغرابة، فماذا يمكنه أن يفعل ليُعثِر عليها؟ مضى يعتصر عقله ويده تدق بالخيزرانة على رجل سرواله الأصفر، وعيناه تائهتان في ملأ المُفَكَّر، إذا كانت شَمَّة امرأةً من الغرابة قد فَعَلتْ هذا فلا بد أنها راقدة الآن عند مكان الترحيلة، لا بُدُّ هذا، فمن غير المقبول أن تضع الواحدة مولوداً كهذا وتقتله أو يموت منها وتذهب في الصباح التالي لتعمل وتمسك خطأً، والمسألة في يده وليس عليه إلا أن يتأكد.

تجهم وجه فكري أفندي علامةً على أنه وصل إلى قرار، وتحرك — ومعه الجمع الصغير — إلى مكان الترحيلة، كان المكان خاويًا ليس فيه سوى القُفُّ والمواقد وبقايا الخشب المحترق وروائح الغروب، فالأنفار كانوا قد ذهبوا قبل الشروق، كالعاده، إلى الغيط. أدرك فكري أفندي ومن معه هذا بنظره واحدة عريضة ألقواها على المكان، ولكنه آثر أن يبحث بنفسه لعل وعسى. وراح يتجلو مطاطئ الرأس وقد وضع يديه وإدحاهما ممسكة بالخيزرانة وراء ظهره، راح يتَجَوَّلُ ويُشَمِّشُ ويُخْبِطُ القُفُّ وأجوة الزَّوَاد بين آنٍ وآخر من قبيل الاحتياط. ظل سائراً هكذا ووراءه الجمع حتى وصلوا في النهاية إلى «أم الترحيلة» كما كان يدعوها أطفال العزبة، والمرأة عجوز؛ من كثرة كبرها لا تستطيع أن تُحدَّد لها سنًا، ومع هذا فهي تحرس صُرَّ الترحيلة وحاجياتهم وترعى الأطفال حتى تعود أمهااتهم في آخر النهار. توقف المأمور أمامها وغالب ابتسامته وهو يرى العجوز وحولها عشرات الأطفال بعضهم في حضنها وبعضهم قد سبح وحبا بين الصُّرَّ، بعضهم يصيح والبعض الآخر هادئ ساكن عاقل يعبث بثوب المرأة وقدميها، غالب الابتسامة؛ فالمرأة كانت حائرةً

مُلِتَاعَةً لَا تَعْرِفُ كِيفَ تَتَصَرَّفُ، وَلَا مَاذَا تَقُولُ لِلأَطْفَالِ أَوْ كِيفَ تَحْنُو عَلَيْهِمْ، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَصَالِ الْأُمَّةِ وَرِعَايَةِ الْأَطْفَالِ أَزْمَانٌ وَأَحْقَابٌ.

وَعِبَّاً حَاوَلَ أَنْ يَظْفِرَ مِنْهَا بِجَوَابٍ عَلَى كُلِّ مَا وَجَهَ إِلَيْهَا مِنْ أَسْتَلَةٍ، فَهِيَ فِي غِيَّبَةِ السِّنِّ وَالْعَجَزِ لَا تَعْيَ إِلَّا حِينَ يَقْرَبُ بِشُرُّ مَا مِنَ الْمَكَانِ فَتَصْرُخُ فِيهِ أَنْ يَبْتَعِدُ، وَإِلَّا حِينَ تَحْضُرُ الْأَمْهَاتِ قَبْلَ الغَرْوَبِ وَتَقْوِيمِ الْجَلْبَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بِإِنْسَلَالِ كُلِّ أَمْ وَمَعَهَا طَفَلَهَا، أَوْ الَّتِي لَا تَنْتَهِي حِينَ تَرُوحُ تَتَعَرَّ فِي الْبَحْثِ مَعَ أَمِّهَا وَقَدْ تَاهَ بَيْنَ الصُّرُّ.

وَلَمْ يَكُنْ فَكْرِي أَفْنِدِي حَتَّى فِي حَاجَةٍ لِسُؤَالِ الرَّأْيِ، فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ، وَمَعْنَى هَذَا شَيْءٌ مِنَ الْأَثْنَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ الْفَاعِلَةُ الْمُجْرَمَةُ قَدْ تَحَمَّلَتْ عَلَى نَفْسِهَا وَذَهَبَتْ مَعَ الْأَنْفَارِ لِتَعْمَلَ حَتَّى لَا تُكَتَّشَفَ، إِمَّا أَنَّهَا لِيَسْتِ مِنَ الْغَرَبَوَةِ وَقَدْ تَكُونَ مِنَ أَهْلِ الْعَزَبَةِ.

عَنْهَا الْاحْتِمَالُ الْأَخِيرُ تَوَقَّفُ الْمُأْمُرُ وَرَاحَ مَرَةً أُخْرَى يُحْدِقُ فِي الْفَضَاءِ وَيَجْوِبُهُ بَعْدِ نَصْفِ مُعْمَضَةٍ وَعِنْ مَفْتُوحَةٍ، وَفَكَرٌ قَلِيقٌ مُخْلَّلٌ. هُوَ عَلَى يَقِينٍ قَاطِعٍ أَنَّ الْفَاعِلَةَ مِنْهُمْ كَيْقِينَهُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالنَّفْسِ الْلَّوَامَةِ، وَلَكِنَّهُنَّا هُنَاكَ احْتِمَالًا وَاهِيًّا بِسِيَطَةٍ أَنْ تَكُونَ الْفَاعِلَةُ مِنَ الْعَزَبَةِ، خَاصَّةً وَمَكَانُ الْغَرَبَوَةِ نَظِيفٌ، احْتِمَالُ تَافِهِ قَدْ لَا يَتَعَدَّ وَاحِدًا فِي الْأَلْفِ، وَلَكِنَّهُ احْتِمَالُ الْأَسْلَامِ، عَلَيْهِ أَنْ يَنْاقِشَهُ لَقَدْ اسْتَعْرَضَ الْعَزَبَةَ مِنْ هُنْيَّهُ وَكَانَتِ النَّتِيَّةُ بِرَاءَةُ نَسَائِهَا جَمِيعًا، وَلَكِنْ مِنَ الْجَائِزِ أَنَّهُ سَهَّا أَوْ نَسِيَ، أَوْ فَاتَهُ وَاحِدَةٌ تَكُونُ هِيَ الْجَائِزَةُ. مِنَ الْجَائِزِ جَدًّا.

لَمْ يَفْطُنْ الْمُأْمُرُ – وَهُوَ يَفْكِرُ – إِلَى اقْتِرَابِ صَالِحٍ خَوْلِيِّ الزَّرَاعَةِ مِنْهُ، لَمْ يَفْطُنْ إِلَى حِينَ أَصْبَحَتْ طَاقِيَّةُ صَالِحٍ الصَّوْفُ الَّتِي يَتَعَمَّمُ عَلَيْهَا تَحْتَ أَنْفِهِ تَمَامًا، وَإِلَّا حِينَ رَفَعَ صَالِحٍ ذِيلَ بَصَرِهِ فِي نَظَرَةٍ مَاكِرَةٍ مُقْتَرَحةً، وَقَالَ فِي هَمْسٍ مُبَتَّسِمٍ: مَا تَكُونُش نَبُوَيْهِ هِيَ عَمَلَتْهَا لِيَهُ؟

خَرَجَتْ كَلْمَاتُهُ هَامِسَةً، وَلَكِنْ هَمْسَاتُهُ سَمِعَهَا كُلُّ الْمَرَافِقِينَ، وَعَلَتِ الْأَصْوَاتُ تَحْتُ وَتَؤَكِّدُ أَنَّهُمْ الْغَرَبَوَةُ، وَتَكَادُ تَحْلِفُ عَلَى الْمَصْحَفِ وَالرِّبْعَةِ وَتُنْدَدُ بِالْاَتَاهَمِ وَالْبَاعِثِ عَلَيْهِ، وَتَشَرَّحَ – فِي كَلِمَةٍ مِنْ هُنَاكَ وَأَخْرَى مِنْ هُنَاكَ – قَصَّةُ نَبُوَيْهِ الَّتِي كَانَتْ زَوْجَةَ لَعَرَبَجِيِّ مِنَ عَرَبِيَّةِ التَّفْتِيَشِ وَمَاتَتْ، وَتَرَكَ لَهَا الْعَرَبَةَ وَالْحَصَانَ وَبَنِتَّا وَوَلَدَّاً. فَبَاعَتِ الْعَرَبَةَ وَالْحَصَانَ وَتَاجَرَتْ بِشَمْنَهُمَا فِي «الْقَوْطَةِ» وَأَفْلَسَتْ، وَعَمِلَتْ مَقَاوِلَةً أَنْفَارَ وَخَبَّازَةً، وَخَدَّامَةً فِي بَيْتِ الْمُأْمُرِ السَّابِقِ، وَاشْتَغَلَتْ، أَخْرِيًّا، تَاجِرَةً بِبَيْضٍ، وَرَبِّتِ الْبَنْتَ وَالْوَلَدَ، بَلْ حَتَّى أَرْسَلَتِ الْوَلَدَ لِيَتَعْلَمَ فِي الْكُتُبَ، وَتَفَرَّطَتْ فِي أَيِّ مِنْهُمَا، وَلَكِنْ مَسَأَلَةُ تَفْرِيَطِهَا فِي نَفْسِهَا كَانَتْ مَوْضِعُ أَخْذِ وَرْدٍ وَمَسَاجِلَاتٍ وَتَكَهَنَاتٍ. ارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ تَنْدَدُ وَتَحْتَجُ وَتَرَاقبُ أَثْرَ الْكَلَامِ عَلَى وَجْهِهِ

المأمور، ويبدو أن الواقعين حين لم تبد على ملامحه دلائل الاقتناع بدعوا يتراجعون، وببدأ واحد يقول: لا يعلم الغيب سوى الله يا جماعة.
ورد عليه آخر: الشيطان شاطر.

غير أن نبوية التي تتميز عن نساء العزبة بأرداف وارفة وخلال فضة سميك يكاد يُطبق على نهاية ساقيها المكتنزنَّتين، نبوية هذه لم تثبت أن أخرست كل الألسُّن حين شاهدتها المأمور ومن حوله وقد علّقت «السبت» في يدها وراحت تطرق الأبواب وهي في أتم صحة وتساؤل عن البيض. استدارت الأنّظار حينئذ شامته إلى صالح تكاد من حِدّتها أن تخرق طaciّته الصوف وعِمامته البيضاء وجلبَابه الأسود الثقيل الذي لا يُغَيِّرُه أبداً. وتشاغل صالح عن الأنّظار المُصوّبة إليه بـأن مديده في جيّبه وأخرج صندوق سجائِره وانتحى مكاناً بعيداً — من قبيل التأدب — ومضى يلف سيجارة.

أما المأمور فقد غامت ملامحه لدى رؤية نبوية وأسرع بمعادرة المكان وقد بدأ صدره يضيق، وزعزع بصوت مرتفع: الرّكوبة يا عبد المطلب.

لم يُعُدْ ثمة أملٌ إلا أن يجد الفاعلة بين أنفاس الترحيلة الذين يعملون في الغيط. وجاءت الرّكوبة بعد قليل، حمار ناعم ممتهن لا يظهر منه عرقوب، ولا تبدو في بياضه الناصع سوادة واحدة، يرنُّ لجامه إذا ما خطأ، وخطوه خطوط حصاوي أصيل. استند المأمور إلى كتف عبد المطلب، وبدفعة قوية من جسده كاد ينْجُ لها الخير ارتقى السرّح المكسُو الأنيق.

وما كاد الحمار يُحسُّ بارتفاع راكبه فوقه حتى نهق نهيقاً طويلاً فيه كبراء، ثم اندفع إلى الأمام وانطلق وراءه كل الخَوَّة وبعض التَّمْلِيَّة وعبد المطلب الخفير والأسطى محمد العجوز.

كانت الشمس — إذ ذاك — قد غادرت قمم أشجار الكافور العالية المزروعة كالسور المهيّب حول أرض التفتيس، وبدأت تَحُثُّ الخطأ إلى قلب السماء. وكان الطريق الذي سلكه المأمور قَفْرًا ليس على جانبيه شجرة، ولا حتى تنبت فوقه حشيشة، بل مجرّد خطٌّ ثخين من التراب على يمينه مئات الأفدنَّة وعلى يساره مئات. وكان الغيط أيضًا ساكنًا ذلك السكون الأبدى الذي يُذكّر دائماً بوجوده فيَّ ذلك الأَرْجَى المتواصل العنيد. ولم يكن يَخْدُشُ ذلك السكون سوى دقات أَرْجُل الرّكوبة الأربع. وهي تَدُقُّ الأرض واحدة وراء الأخرى، فتكاد تغوص في التراب تُثْيِر سحاب الغبار، والغبار ينهال على وجوه الـاهْتِين خلف المأمور وركوبته، غبار

كالذباب لاسع وعنيد وشمس لا ترحم بدأت تشوي رءوسهم وظهورهم، حتى ذيول أثوابهم لم تُفلح في منع نارها. أمّا فكري أفندي فقد وضع منديله أسفل الطربوش محاولاً أن يجعل منه قبعة، وكاللرّكوبة ضربتَين بکعب حذائه وأعقبهما بنَخْزَة من طرف خيزرانته المُدبَّبة التي وُضِعَ في آخرها مسماً صغير مُعدّ لهذا الغرض بالذات، نَخْزَة جاءت بين الأكتاف، ولم تكن الركوبة في حاجة إلى ضرب أو نَخْزَة فقد كانت مُنْطَلِقة بكل ما تملك من قوّة.

ظل الركب الصغير ينبع أرض المَشَايَة، وهو وماموره وتابعوه حتى سُحب الغبار التي يثيرها، لا يَتَعَدَّى مجرد نقطة صغيرة متحركة في ذلك المُسْطَح الشمسي الواسع الذي لا تدرك العين مداه. ظل الركب ماضياً في صمت، الركوبة تلهث والرجال يلهثون والعرق يسيل، حتى عرق فكري أفندي – الوحيد الجالس – كان هو الآخر يسيل. ظل الركب ماضياً هكذا مُدَّةً أدرك بعدها الأسطى محمد العجوز – وكأنما فجأة – أن لا ناقة له ولا جمل في الأمر، فكف عن الجري ونفض يده من حكاية اللقيط وجلس على حافة الطريق يُكمل لهثه ويستريح. جلس على الحشيش القصير النابت على شاطئ الخليج، وكأنه شُجَّيرة عجوز نبتت بينه فجأة، بل ما لبث أن فعل مثل شُجَّيرات الحشيش الجالس عليه، فكما مدت هي جذورها إلى الماء الجاري في الخليج، مد هو الآخر قدميه وساقيه يبللها بالماء، وكأنما يسقي بهذا روحه التي كاد يقضى عليها لظى الشمس.

أما بقية القافلة فقد مضت في طريقها وكأنما لم تحس بتأخر العجوز وكل منهم مشغول بعرقه وشقاه وحاله.

وما من مرة امتطى فيها فكري أفندي الركوبة وسرح الغيط – وهو كل يوم يمتهن الركوبة ويسرح الغيط – إلا وأحس بمنعة، فالحمار لا يمشي ولكنّه يرقص، وكل حركة منه فيها رشاقة الأصيل وكبراءة، ولكن، هذه المرة، كان في شغل شاغل عن منعة الركوب، وحتى عن العرق والحر والرجال الذين يلهثون خلفه بتلك المشكلة التي ولدت له ذلك الصباح، كان عليه – لأول مرة – أن يفكر في شيء بعيد كل البعد عن مهنته كمامور زراعة، تلك التي كان لا يفكر في غيرها، كان عليه أن يفكر في شيء بعيد كل البعد عن التقاوي والسماد والأرض العطشى والأرض التي حان وقت تسميدها ووجب. أمّا هذا الشيء الذي كان عليه أن يفكر فيه فهو الترحيلة، لا كما اعتاد أن يفكر فيهم، فالواقع أنه ما تعود أن يفكر فيهم إلا كأنفار، أنفار يلتقطون الدودة ويجمعون القطن ويُطهرون المصارف. الشايب فيهم نفر والصغير نفر كُلُّهم أرجلٌ شَقَّقَها الجوع والحراء وحَشَّنتها الأرض الصلبة، وأيّد معروقة حرقتها الشمس، ووجوه مُتجهمة لا تعرف حزنها من فرحة ولا رجلها من امرأتها، حتى الملابس لا فرق بين ملابس الكبير أو الصغير، ولا بين جلباب

الرجل — وقد حال لونه وتناثرت فيه الخروق — وثوب المرأة الأسود الباهت الذي تنسّلُ الخيوط من كل مكانٍ فيه، بل كثيراً ما يحدث أن يستعير الرجل منهم جلباب امرأة، وتستعير المرأة جلباب زوجها دون أن يلاحظ أحد أي فارق أو ممّيّز.

تعود فكري أفندي أن يراهم هكذا، بل الواقع أنه — بينه وبين نفسه — لم يكن ليتصور أن بين هذا القطيع البشري كله امرأة واحدة! كلام ترحيلة وغرابة وأنفار. بل أكثر من هذا لقد افترض أن الفاعلة منهم، قال هذا للناس وذهب بنفسه وبحث خلف الإصطبل، ولكنه كان يفعل هذا وكأنه يفعله من وراء عقله. كان متأكداً أن الفاعلة منهم ومع هذا لم يكن ليُصدق أن من الممكن أن تُوجَد بين هذه المجموعة امرأة أو بنت تحمل وتلد، حلاًّ كان أو لقيطاً، لم يكن ليُصدق وكأن التي ولدت اللقيط لم تكن امرأة بل كانت رجلاً.

هو مُضطَر إذن — والشمس تلهم رأسه رغم المنديل والطربوش — أن يُصدق هذا، وأن يبدأ ينظر إلى الترحيلة من زاوية أخرى. فهم «صحيح» أنفار وغرابة ولكن بينهم أيضاً نساء يحملن ويُلدن، بل — أكثر من هذا — يحملن ويُلدن في الحرام.

الحقيقة لم يسترح عقل فكري أفندي أبداً لهذا التصور، فقد كان من العسيرة عليه أن يغير نظرته إلى الترحيلة في لحظة، وكان من الصعب أن يستحيل النفر منهم في خاطره إلى امرأة أو بنت تنام مع الرجل وتحمل وتُنجب أطفالاً. ولكن فكري أفندي كان من الصنف الذي لم يتعد قلقة الحقائق في رأسه كثيراً قبل أن يُصدقها، فليكن هذا، فلتكن الفاعلة منهم، فعليه أن يعثر عليها ويراهما رأى العين ويرى كيف استطاعت أن تفعل هذا. بل لم ينتظر فكري أفندي أن يصل إلى الأنفار، بدأ خياله يسرح ويسبقه، بل ويسبق حادثة اليوم، ويتصور — وثمة لذة خفية تصاحب تصوره — القصة التي انتهت بمشاهد ذلك الصباح، راح يتحسس بخياله على القصة في غير قليل من الخجل، وهو مستعد أن يكف عن تصوره في أية لحظة، راح يسبح مع قصة الحب التي لا ريب أنها نشأت بين البنت وأحد فتيان الترحيلة المفتولى العضلات المكشوفة في الصدر الملوّح الوجه، وكيف تسرب إليها ذات ليلة وكان ما كان.

وتعثر الحمار وكاد يقع، ولكنه تمالك نفسه في قوة. وفي نفس الوقت تَعَثَّرَ خيال فكري أفندي السارح في شيء خطر له حلاً، فقد أحس باستكثار غاضب يجتاكه، معنى هذا أن الخطيبة ارتكبْت فوق أرض التفتيش، وصحيح أنه ليس مالك التفتيش وليس أبداً حامي حمى الفضيلة فيه، ولكن مجرد شعوره بهذا جعله يغضب وينهال على الحمار

بالعصا الخيزران ضرباً جزاء له على تعثره. ولكنه — وهو في قمة انفعاله — لم يفته أن يلاحظ أن اللقيط الذي عثروا عليه اليوم كامل النمو، والترحيلة لها في التفتيش ما لا يزيد على الشهرين، هنا فقط كف فكري أفندي عن ضرب الحمار ونخذه وأحس براحة داخلية تهب عليه من صدره. الجريمة إذن لم تحدث على أرض التفتيش، فالبنت قد جاءت وهي ليست بخیر، ثم لما تكامل الشر في بطنها وَسَعَتْهُ هكذا بلا ضوضاء في سكون الليل ودون أن يشعر بها أحد، ثم خَنَقَتْهُ حتى دون أن يكون هناك داعٍ لخنقه.

يا لها من عاهرة!

ثم لم تكتفِ بهذا، وإنما تحاملت على نفسها، وسَرَحَتْ مع الأنفار — على خيوط الفجر — حتى لا يتسرّب إنسان إلى سرها.

يا لها من جبارة!

ولكز فكري أفندي الحمار لکزة قوية وهو يمر بيده ليمسح العرق الذي تکاثر حول فمه وتساقط من طرف أنفه، ويقول في زئير خافت: أعود بالله!

ارتفع نهیق الرَّکوبَة، ولم يكن نهیقها کأی نهیق، كان كل من بالتفتيش يعرفه و تستطيع أذنه أن تُمیِّزه من بين أصوات آلaf الحمير، فکلهم يخاف ذلك النهیق ويعمل له ألف حساب.

وهذه المرة أيضًا تضائق فكري أفندي واغتاظ، فذلك النهیق كان عيب الرَّکوبَة الوحد في نظره وكأن بينه وبين المقاولين والأنفار والخَوَلَة اتفاقًا. ما يکاد يخرج للمرور ليفاجئهم — وهم عنه في غفلة — حتى تفاجئه الرَّکوبَة وتنهق ذلك النهیق العالِي، الذي يصل إلى آخر الدنيا ويوقظ النومي في مضاجعهم، و يجعل كل شيء في الغیط على أتم ما يُرام، وعلى استعداد مُجهَّز لاستقباله.

حين ارتفع النهیق كان الرکب قد بدأ يدخل في الأرض المزروعة قطناً وقد غادر لتوهُ غیط القمح. كان الغیط لا آخر له بحيث يیهرك أن تعرف أن شخصاً واحداً فقط هو الذي يملکه، وبحيث تود في الحال لو كنت أنت ذلك الشخص. وشكل الغیط المزروع يذكرك حتماً بالجنة، فوأنت سائر على المشاية ترى القناة التي بجوارها صحيحاً، وترى عيدان القطن بكامل هيئتها ولوزها وأوراقها، ولكن شجيرات القطن لا تثبت — كلما بعثت — أن تتدخل وتتدخل، وإذا بالتربیعة تبدو أمامك مجرد مستطيل أخضر. والأرض مقسمة إلى ترابیع، والتربیع القریبة محدودة المعالم، وبين كل تربیعة وأخرى مصرف صغير، ولكن التربیع كلما بعثت تختفي المصادر والفاصل حتى لا يعود الإنسان يرى سوى مُسْطَح

واسع غير محدود من الظلام الأخضر، الذي يضيئه عدد لا نهاية له من فوانيس أزهار القطن الصفراء.

ومن بعيد لاح خط الأنفار لا تكاد تُميزه عن الخُضرة المتكاثفة التي يغمق لونها كلما بعدت حتى يستحيل إلى ظلام تام، لا تكاد تُميزه إلا بأعمدة الدخان المتتسعة من الحُفر التي يحرقون فيها أوراق القطن المصابة باللّطع.

وأرهق الحمار نفسه كثيراً وهو يضم رئتيه لينهق بآخر ما يستطيع، ومع أن فكري أفندي لا يقرأ كثيراً لأن القراءة تُتعب عينيه، وعيته لا تستطيعان تمييز الحروف جيداً مهما قرّبها من الأوراق، إلا أنه في الغيط ثاقب النظر كالصقر. وهكذا – ورغم نهيق حماره – استطاع أن يلحظ أن الحَوَلة يقumen فجأة من جلستهم في الظل وراء الأنفار، وترتفع خيزراناتهم في الهواء وتهوي على ظهور الأنفار أو عيadan القطن ضرباً وطرقة، وأصواتهم تأتي صارخةً من بعيد: وَطَيْ يا وله، وَطَيْ يا بنت.

تلك تمثيلية يعرفها فكري أفندي تماماً ومل من تكرارها، وما كاد موكبه يهل على «العمل» حتى اندفع أكثر من سائق من سائقي الأنفار يجري «وتلك في رأي فكري أفندي تمثيلية قديمة أخرى» يجري ليفوز بشرف إمساك الرَّكوبة لحضره المأمور وهو يهبط عنها.

قال فكري أفندي وهو يسحب منديله من تحت الطربوش ويجفف به عرقه وظهره: واد يا عرفة.

وعرفة رَيْس سوادي الأنفار، أي رئيس الترحيلة، وهو الذي فاز بإمساك لجام الحمار هذه المرة، وهو الذي يفوز كل مرة، قال: العواف يا حضره المأمور.

واحترام المأمور أيرد التحية فيبدو وكأن «البلفة» قد دخلت عليه أم يتجاهلها فيبدو قليل الذوق، وأيضاً لم يفعل هذه أو تلك فهو قد جاء لمهمة عليه إنجازها، ولكي تبدو المسألة طبيعية كان عليه أن يسأل عرفة كما يسأله كل مرة: النضافة أزيها؟

– ع السنجة عشرة يا سعادة البيه.

وتجاهل فكري أفندي سروره باللقب وزغر له قائلاً: وإن لقيت لُطْعة؟ فأمال عرفة رأسه ووضع كفه على عنقه وقال: برقبتي.

وقال فكري أفندي بصوت لا يعرف سامعه إن كان جاداً أم هازلاً: يلعن أبوك على أبو رقبتك.

ولأمر ما كان يُخَيِّل لفكري أفندي أنَّ هؤلاء الناس يفرحون بحقيقة حين يلعن آباءهم ويشتمهم، بل لا بدَّ أنَّهم يُحسون بنوع من الهيبة والفاخر وكأنه يمنحهم رتبًا وألقابًا؛ إذ هي في عرفهم لا بدَّ آيات ود وصداقة وتنازل — تنازل منه — هو، مالك هذا الملك كله والامر الناهي فيه. تلك «الابعادية» أو «التفتيش» أو كما تسمى أحياناً «الدائرة»، أكثر من ألفي فدانٍ من أجود الأطيان بما عليها من ناسٍ وبيوتٍ وماكناتٍ وبهائمٍ ومحاصيل، تحت تصرفه، هو السيد الأعلى لهذا كله، سيد العشرة الخوالة والباشكات والخمسة الكتبة والأسطوانت والخفراء والأجراء والفلاحين والمزارعين. هو الذي يمكنه أن يعز من يشاء ويرفت من يشاء ويحكم بالغرامة على من يشاء. في استطاعته أن ينقل الفلاح من عزبة لعزبة، ويعطيه أو لا يعطيه أرضاً يزرعها، بل يستطيع لو شاء أن يطرده نهائياً من التفتيش دون أن يراجعه أحد أو يجرؤ أحد على معارضته، في استطاعته حتى أن يضرب من يشاء بالقلم أو باللکمية أو بالشلوت، بل أحياناً يحبس ويرسل المتهم مخفرًا إلى المركز، ولا راد لقضائه، وما يرده الخوف، وهو لا يخاف إلا من اثنين: رئيسه المفتش، وصاحب الأبعادية، والمفتش يأتي للمرور كل شهر والملك يأتي كل شهرين أو ثلاثة، وباستثناء تلك الساعات القليلة التي يقضيانها في التفتيش فهو دائمًا مالك هذا الملك كله، ألا تبدو شتيمته حينئذ لنفر من الأنفار أو سائق من السائقين منحة وتنازاً؟

الواقع أنَّ مجرد مرور كل تلك الخواطر في رأس فكري أفندي كاد يثنيه عن عزمه؛ إذ أيسَح من رجل هذا شأنه الكبير أن يضيع وقته ويشغل نفسه بمهمة غريبة سخيفة ليست من قيمته كتلك المهمة التي جاء بشأنها؟ ولكنَّه جاء فعلًا، ولن يخسر شيئاً، فإنَّ أحدًا من الأنفار أو السائقين لا يعلم بالسبب الحقيقي لجيئه، تردد ببرهه ولكنه وجد نفسه يقول:

الأنفار كلهم موجودون يا عرفة؟

قال عرفة في حماس: بالنفر.

— أنت متأكد؟

— علىِ الحرام بالثلاثة من بيتي كلهم موجودين.

ومع هذا لم يصدق فكري أفندي، فهؤلاء الناس من رأيه يتمتعون بحظ وافر من قلة الدين، والواحد منهم مستعد أن يُقسم بالطلاق من أجل أن يكسب تعرية، وعلى هذا قال: طب عُدهم.

وقال عرفة: حاضر، أنا خدام.

ومضى يعدهم بصوت عالٍ مرتفع، وفي أثناء العد لا يفوته أن يُرِي همته وحرصه على مصلحة العمل، فينهال على أي ظهر محنى أمامه بخيزانته الرفيعة في ضربة تمثيلية.

عَدَ الرئيس عرفة الأنفار مرَّتين، وفي كل مرَّة يُؤكِّد للناظر — بلهجة بدأ الشك والخوف يتسرّبان إليها — أن العدد مضبوط، وأن الأنفار كلهم يمسكون خطوطاً ويعملون. واستغرب فكري أفندي واندهش، كلام الرئيس صحيح، ولكنه متأنِّك أن واحدة من هؤلاء الأنفار هي التي ولدت ذلك اللقيط فكيف يتتفق هذا مع وجودهم جمِيعاً في ذلك الطابور المنحنى الطويل، لا بُدَّ إذن أن الفاجرة غصبت على نفسها واشتغلت، ولكنها لن تفلت منه، فمهما بالغت في حرصها فستبدو آثار الولادة حتَّماً عليها، كل ما عليه هو أن يمر عليهم أجمعين ويحاول أن يلقط الدوحة من بينهم، المجرمة التي ولدت في الليل وقضت على ابنها وجاءت هنا تحني ظهرها وتعمل وتتلقي الضربات، وكأنها ليست بشراً، وكأنها جنِّية من الجنِّيات أو شيخة من المشايخ.

دخل فكري أفندي في التربية أمام صف الأنفار ومضى يقاوم الشمس بعيئيه ويتوقف قليلاً لدى كل امرأة أو بنت يتأملها، العجوز يتركها والنصف يتوقف لديها، والبنت يطيل في ركنته عندها، ولأول مرَّة يدقق فكري أفندي في زي الغرابوة وملابسهم، ويعرف أن سراويل نسائهم طويلة جدًا تصل إلى الكعبين، وتنتهي بذيل مُكشَّش، ودائماً ألوانها فاقعة.

تعدى فكري أفندي متصف خط الأنفار دون أن تستوقفه واحدة وكاد الخط ينتهي وهو لا يعثر على ضالته المنشودة، وفجأة لمح شيئاً يبعث على الأمل، ظهراً أثنوياً منحنياً هو الوحيد البادي عليه أنه ظهر أثني، رفيع من الوسط ينتهي بردفين عريضين بارزين، ورأس هو الوحيد البادي عليه أنه رأس أثني، تتعصب بقملة مُلُونَة تُظهر شعراً أسود لاماً غزيراً كشعور النساء.

وقال لنفسه: لا بُدَّ أنَّها هي، وَطَّيْ يا بنت.

قال الجملة الأخيرة وهو ينهال على الظهر المنحنى فعلاً — ولا حاجة به إلى انحناء آخر — بضربيه من خيزانته، ضربة قاسية قاصمة تأوهت لها المنحنية ولم تتمالك نفسها فاعتدلت لتضع يدها على ظهرها المضروب وقد أفلتت منها شهقة مستغيثة، وحدق المأمور في وجهها المتقبض في ألم.

كان وجهها معافاً سليماً لا مرض أو ولادة فيه، وعلامات الألم المرتسمة على ملامحها علامات ألم حديث سببته ضربة العصا، ولا يمكن أن تكون علامات ألم بايت سببته ولادة، وانتقل المأمور إلى ظهر آخر، ومن ظهر إلى ظهر مضى يتفقد ويحملق ويتأكُّ، وانتهى خط الأنفار وغيط فكري أفندي قد بلغ مداه، فهو قد خرج من استعراضه صفر اليدين وخابت فراسته.

وفجأة وجد فكري أفندي نفسه يهدر في الرئيس عرفة: طلع العمال من الأرض، وخلיהם كلهم يمروا واحد واحد قدامي.

وتجمد عرفة في يده مؤقت، ولم ينطق إلا على أثر شخطة أخرى من المأمور. وبدا وكأن الأنفار قد فرحوا كثيراً بقرار خروجهم؛ إذ هم على الأقل سيستريحون - ولو لحظات قليلة - من انحناء ظهورهم العارمة في قسوتها وحديتها، الانحناء التي تستمر أكثر من عشر ساعات في اليوم، فرحة كبرى أن يستريح منها الإنسان دقيقة.

اعتل الأنفار ومدوا أيديهم جمِيعاً وبلا استثناء تضغط على أماكن الألم في سلاسلهم الفقرية، وحين أفاقوا من غيبوبة النشوة القصيرة التي اعترتهم وعرفوا بقرار المأمور ابتهجت له النساء والبنات كثيراً، وراحـت كل واحدة تُمني نفسها بـألف ليلة وليلة من الأحلام، معتقدة أن اختيار المأمور حـتماً سيقع عليها، وستقضـي أحـلى الساعـات وهي تخـطر بـخـفة كـخـادـمة في بـيـتهـ حـامـلةـ الأـطـبـاقـ أوـ مـناـولـةـ الـقـلـةـ، حـيـثـ الـظـلـ الـواـرـفـ، والـجـلـوسـ، والـطـعـامـ الـكـثـيرـ، وـحيـثـ لـاـ عـصـاـ وـلـاـ خـيـزـرـانـاتـ أوـ سـوـاقـونـ، أـمـاـ الرـجـالـ فـإـنـهـ مـضـواـ غـيرـ مـُـبـالـيـنـ كـالـحـكـومـ عـلـيـهـمـ بـسـجـنـ طـوـيلـ.

ومـرـ الأنـفارـ أـمـاـنـ المـأـمـورـ، وـراـحـ فـكـريـ أـفـنـديـ يـحـملـقـ فـيـ الـوـجـوهـ، الـكـبـيرـةـ وـالـصـغـيرـةـ، الـعـجـوزـةـ وـالـصـبـيـةـ، الـقـبـيـحةـ وـالـمـلـحـيـةـ، الـغـبـيـةـ وـالـمـرـيـضـةـ، وـيـقـفـرـسـ فـيـ الـأـجـسـادـ، الـمـشـوـقـةـ وـالـلـمـنـحـيـةـ، الـأـجـسـادـ الـتـيـ تـرـجـعـ وـالـتـيـ تـقـفـزـ، الـجـافـةـ وـالـنـضـرـةـ، الـأـجـسـادـ الـتـيـ تـوـدـعـ الـحـيـاـةـ وـالـتـيـ تـسـتـقـبـلـهـاـ، وـلـمـ يـجـدـ أـبـدـاـ - فـيـ جـسـدـ مـنـ الـأـجـسـادـ وـلـاـ فـيـ وـجـهـ مـنـ الـوـجـوهـ - وـاحـدةـ مـنـ الـحـتـمـلـ أـنـ تـكـوـنـ هـيـ الـآـثـمـةـ الـفـاعـلـةـ.

وهـدـرـ فـكـريـ أـفـنـديـ يـأـمـرـ عـرـفـةـ بـإـرـجـاعـ الـأـنـفـارـ إـلـىـ الـأـرـضـ وـيـلـعـنـ آـبـاءـهـ وـأـبـاهـ، بـجـدـ وـحـقـ هـذـهـ المـرـةـ.

وـبـيـنـمـاـ كـانـ يـضـعـ قـدـمـيـهـ فـيـ الرـكـابـ وـيـسـتـعـدـ لـلـقـفـزـةـ الـتـيـ تـُـصـعـدـ فـوـقـ ظـهـرـ الرـَّكـوـبـ كـانـ يـعـتـرـ عـقـلـهـ بـيـنـ مـسـتـحـيلـيـنـ:

فـمـسـتـحـيلـ أـنـ تـكـوـنـ أـمـ الـلـقـيـطـ مـنـ غـيرـ التـرـحـيـلـةـ.

وـمـسـتـحـيلـ أـنـ تـكـوـنـ هـذـهـ الـأـمـ بـيـنـ الـأـنـفـارـ الـذـيـنـ تـفـحـصـهـمـ لـتـوهـ.

وـفـيـ طـرـيـقـ عـودـتـهـ إـلـىـ الـعـزـبـةـ مـنـ نـفـسـ الـمـلـاـيـةـ الـتـيـ جـاءـ عـلـيـهـ كـانـ الـأـسـطـىـ مـحـمـدـ لـاـ يـزالـ - وـقـدـ اـسـتـحـلـيـ الـقـعـدـةـ - يـمـدـ رـجـلـيـهـ فـيـ الـمـاءـ وـيـلـعـبـ فـيـ الـأـطـفـالـ بـقـدـمـيـهـ. وـحـينـ رـأـيـ المـوـكـبـ هـالـأـ مـنـ بـعـيـدـ هـبـ وـاقـفـاـ مـنـ جـلـسـتـهـ كـالـلـسـوـعـ وـأـسـرـعـ يـنـضـمـ إـلـيـهـ، وـلـمـ يـكـنـ فـيـ حـاجـةـ لـسـؤـالـ

ليدرك أن الفشل كان حليف المأمور، كل ما في الأمر أنه ظل ساكتاً بُرْهَة يلهث مع اللامثين ويتحاشى سُحب الغبار ثم قال بتهته العجوزة المتحمسة: اعمل بقى زي ما عمل سيدنا عمر يا حضرة المأمور.

والإنسان في لحظات يأسه يتعلّق بالقشّاية، وجذب فكري أفندي لجام الركوبية قليلاً ليُبْطِئ من ركضها، وحين حاذاه الأسطى محمد سأله: سيدنا عمر عمل إيه يا بو عقل فارغ؟

وقصة طويلة هي التي حكّاها الأسطى العجوز، قصة استغرقت كل الطريق إلى العزبة الكبيرة، بدأت بأن سيدنا عمر – رضي الله عنه – كان يتّجول في أنحاء المدينة متخفياً ليت فقد شئون الرعية، وفي أثناء تَجَوّله عثر على جثة شاب في ريعان الشباب مقتولاً بطعنة خنجر، وحاول سيدنا عمر أن يعثر على قاتله بلا جدوى، وأخيراً – وحين يئس – قال له شيخ حكيم: إذا أردت العثور على القاتل فانتظر تسعه أشهر وسوف تجده بين يديك. ولم يأخذ سيدنا عمر كلام الشيخ على محمل جاد، ولكن بعد تسعه أشهر بالضبط سرت شائعة في المدينة تقول: إن بنت فلان قد وضعت طفلًا دون أن تتزوج أو يقربها إنس. وحينئذ قال الشيخ العجوز لسيدنا عمر: هاك القاتلة، التي ولدت حتنًا هي التي قتلت.

قال سيدنا عمر: كيف؟ قال الشيخ: لا بدّ أن الشاب اعتدى عليها فقتلته.

ومع أن الحكاية أُعْجِبَت فكري أفندي وكادت تُخَفَّف من غُلوّاته إلا أنها لم يكن لها دخل فيما هو فيه. مجرد حكاية أخرى من حكايات الأسطى محمد الكثير الحكاوي الذي يؤلّف لكل شيء حكاية، وكأن مشاكل الدنيا تحلّها الحواديت.

كل الذي حدث أنه كان قد يئس تماماً من إشباع حب استطلاعه والعثور على أم القيط، وصمم أن يُلْقِي الأمر من وراء اهتمامه ويبُلْغُ المركز ويتصرف كما يحلو له. وزيادة في الاحتياط أُمِلَ على مسيحة أفندي الباشكابط صيغة البلاغ، وراعي في اختيار كلماته كل الدقة حتى يُخْلِي طرفه وطرف التفتيش من أية مسئولية.

وجاء البوليس.

وجاءت النيابة.

وجاء مفتش الصحة.

وأُخْلِيَت لهم مباني الإدارية، واحتل وكيل النيابة حجرة المأمور، وتناثر عساكر البوليس يشربون الجوزة ويعحسون الشاي حول المبني ووقف مخبر مكشوف يتلّأ عند دكان جنيدى، أما سكان العزبة فقد وقفوا من بعيد يرقبون ما يحدث، ويُلْقِون الإشاعات ويتهامسون.

أما فكري أفندي المأمور فقد كان مشغولاً حقاً، ذلك أنه رأى أن ينتهز الفرصة ويعُد لرجال الأمر والنهي في المركز وليمه حافلةً فمصالحه عندهم كثيرة وما أقل ما يأتون إلى التفتيش؛ وعلى هذا قطع المسافة بين بيته عند رأس العزبة الكبيرة وبين مبني الإداره عشرات المرات يُشرف بنفسه على الديك الرومي ويتدوّق الخبز الذي أُعد في بيته خصوصاً للعزومة، وكان أهالي العزبة حين يرمقونه في انبعاث وهو داخل أو خارج من مبني الإداره يشعر هو بسعادة لا حد لها؛ إذ هو الوحيد – بينهم جميعاً – الذي له حق الكلام مع المأمور والبيه الوكيل والسلام على مفتش الصحة.

وابتدأ التحقيق.

وجيء بكل امرأة وبنت من نساء الترحيلة بعد لكرها مرات لكي تخاف وتعترف، وجيء كذلك بنبوية وهي متعلقة بسبت البيض لا تريد تركه وفيه – كما تقول – رسالها، وسُئل عبد المطلب الخفيف والأسطى محمد.

وانتهى التحقيق وثبت أن اللقيط مخنوّق، وقُيدت الجريمة ضد مجهول، وصرّحت النيابة بدفع الجثة الصغيرة في جبأة التفتيش، وتتطوّع عبد المطلب بتكتينه وتجهيزه ودفنه.

وأكل رجال الأمر والنهي الغداء وقالوا سلاماً.
وانتهى اليوم.

انتهى اليوم ليُسلم التفتيش – إدارةً وفلاجين وموظفيـن – إلى حيرة عظمى، فهم ما إن عرّفوا حكاية اللقيط حتى أراحو أنفسهم وقالوا: الترحيلة. ولكنـ هـا هي ذـي الحقائق تُثبت لهم أن الترحيلة بريئة، وأنـ الفاعـلة ليستـ منهمـ. حتىـ فـكريـ أـفنـديـ المـأـمورـ الذـيـ كان مـصـراًـ عـلـىـ أنـ الفـاعـلةـ وـاحـدـةـ مـنـ التـرحـيلـةـ بـدـأـ الشـكـ يـتـسـرـبـ إـلـىـ إـصـارـهـ،ـ وـعـمـعـ هـذـاـ فـكـلـمـاـ رـأـىـ أـنـفـارـهـ سـارـحـينـ إـلـىـ الغـيـطـ أـوـ مـرـوحـينـ،ـ رـغـمـاـ عـنـهـ تـرـوـحـ عـيـنـهـ تـبـحـثـ بـلـاـ وـعـيـ عـنـ النـسـاءـ فـيـ الـأـنـفـارـ عـلـهـ يـلـمـحـ عـلـىـ إـدـاهـنـ فـجـأـةـ عـلـامـاتـ الـفـجـرـ وـالـحـرـامـ.ـ وـكـانـ أـوـلـ الـأـمـرـ يـمـتـعـضـ وـيـجـفـلـ وـلـكـنـهـ بـمـضـيـ الـأـيـامـ أـصـبـحـ نـوـازـعـ غـرـيـبـةـ تـتـحـرـكـ فـيـهـ كـلـمـاـ رـأـىـ بـنـتـاـ أـوـ اـمـرـأـ منـ بـنـاتـ التـرحـيلـةـ،ـ بـلـ وـجـدـ نـفـسـهـ – ذاتـ مـرـةـ – يـمـزـحـ مـعـ وـاحـدـةـ مـنـهـنـ،ـ وـمـرـةـ اـدـعـيـ لـنـفـسـهـ وـلـنـاسـ أـنـهـ يـزـغـدـ بـنـتـاـ فـيـ صـدـرـهـ لـيـزـجـرـهـ،ـ وـارـتـطـمـتـ يـدـهـ طـبـعـاـ بـثـدـيـهـ،ـ وـرـُزـوعـ قـلـيلـاـ حـينـ وـجـدـ بـكـرـاـ مـكـنـزاـ جـامـداـ كـالـكـرـةـ الشـرـابـ.

أمّا البنت فقد دُهش حين رأى وجهها يباهت فجأة وكأنما سُحب منه كل دمائه، ثم يغمق لونه في التو وتتحمّر وجنتها وتتجفّل وكأنها خجلت وغضبت، يا ألطاف الله! ألمكن أن نساء الترحيلة تخجل وتغضب هي الأخرى كحقيقة خلق الله؟

أمّا بقية النّاس في التفتيش فالمسألة لم تمر هكذا بسهولة، وكأنك أقيت بحجر ضخم في ماء راقد آسن. بدأت الاتهامات والشكوك تنهال من كل صوب، حتى لم تسلم واحدة من نساء العزبة الكبيرة من الشك في أمرها مع علمهم التام أنهن جمیعاً بريئات، ولكن لا بُدّ لكل خطيئة من خاطئة، وكل جريمة من فاعل، ولا بد أن يكون لتلك الجريمة فاعلة، والجريمة عرفوها، تُرى من تكون الفاعلة؟

بل أكثر من هذا بدأ الشك يزحف من بيوت الفلاحين المنخفضة إلى بيوت الموظفين العالية، فبدأ الفأر يلعب في عب مسيحة أفندي الباشكاتب، وبدأ يخاف أن يكون المحظور قد وقع، والحقيقة أنه كان خائفاً دائمًا أن يقع المحظور، بل أكثر من هذا هو دائم الخوف من المحظور وغير المحظور.

مسيحة أفندي أرسخ الموظفين جمیعاً أقداماً في التفتيش؛ إذ هو قد تربى فيه من أيام البرنسيسة، وتدرج من نفر بالأجرة يرسله أبوه ليتعلم مبادئ الحساب والقراءة والكتابة عند المعلم قيسير الباشكاتب القديم، كاهن الحسابات الأكبر الذي يعرف أسرارها وعلّمها، يرسله أبوه حيث يجلس تحت قدمي المعلم قيسير في وجل وتقدير، منتظرًا — كالكلب الأمين — أن يُلقي إليه معلمه بين الحين والحين بحسبة من الحسب، فيتلقفها مسيحة الفتى واجف القلب خائفاً خوف الموت أن يخطئ في حلها، فيغضب منه الباشكاتب ويُضن عليه بأسرار الحرفه. ومن أجل هذا فهو الأطوع له من بناته، يخدم في منزله ويدّه إلى البندر البعيد ويشتري حاجياته ويحافظ على زجاجة الزبّيب أكثر من محافظته على عينه، وإذا ما همهم المعلم قيسير لينطق تفتحت أذناته كلتاها لكلامه، وإذا ما تكلم لا يصغي إليه وإنما الأدق أنه يمد أصابع نِهْمَةً من أذنيه ليلتقط كل كلمة تخرج من فمه ويدسها في رأسه بسرعة مخافة أن تضيع أو تتبدّل؛ إذ من حساباته وكلماته سينتقل مسيحة من طبقة إلى طبقة، ومن فتّي ماله الزراعة والعمل بالفأس حتماً إلى أفندي يجلس على مكتب ويُعمل بذلك الشيء الصغير الساحر: القلم.

كل كلمة يقولها المعلم قيسير كانت تثبت في عقله ويتشبع بها كالصّبغة الأصلية التي لا تَبَهَّت، كل كلمة حتى النواود التي يحكّيها، وأهم نادرة تلك التي حكّاها له المرحوم ذات مساء فأصبحت بوصلة حياته.

قال المعلم قيس: الاتنين في اتنين بкам يابني يا مسيحة؟
فأجاب مسيحة كاللتميذ الشاطر: بأربعة يا معلمي.
ولدهشته أجابه المعلم: آه، عمرك ما ح تبقى باشكاتب يا مسيحة.

فحزن مسيحة جدًّا، وسأل معلمه عن سبب هذا وهو مغموم فقال له المعلم تلك الحكاية: أراد أحد أصحاب الأرض أن يُعيّن كاتبًا عنده فأعلن هذا للناس، وصار يأتيه طلاب الوظيفة من مشارق الدنيا ومقاربها ويقابلهم واحدًا واحدًا. وكان لا يسألهم أبدًا عن مؤهلاتهم أو أسمائهم أو الأماكن التي عملوا فيها، كان فقط يسأل الواحد منهم ذلك السؤال الذي سأله إياه: الاتنين في اتنين بкам؟

وكلما سأله أحدهم ذلك السؤال وقال له على الفور: أربعة، كان يقول له: افضل من غير مطرود. ظل هذا يحدث إلى أن دخل عليه رجل كبير في السن يحمل تحت إبطه دفترًا وفي يده جرابٌ فيه دواية حبر وريشة كما كانت العادة في الكتبة أيام زمان. وحين أصبح الرجل أمام صاحب الأرض سأله السؤال المعتاد: الاتنين في اتنين بкам؟

فقال له الرجل: الاتنين في اتنين؟

قال: نعم.

قال له: استنى يا سيدى على، أيوه أقول لحضرتك.
وجلس، وفتح الدفتر الذي معه وأخرج الدواية والريشة وكتب على الورقة أمامه: اتنين في اتنين يساوي أربعة.

ثم قال لصاحب الأرض: أيوه يا سيدى، الاتنين في اتنين بأربعة ما عدا السهو والخطأ.
حينئذ قال صاحب الأرض: بس، أنت اللي تأخذ الوظيفة، مبروكة عليك.

الحرص والحدر وعدم ترك الشيء للصدف ذلك ما علمه إياه المعلم قيس قُدست روحي، وذلك ما جعله يختلف في وظيفته حين مات، وما جعله يعمل في التفتيش أكثر من أربعين عامًا ماضيًا على تلك القاعدة بلا سهو أو خطأ، يقبل عليه مامير ومفتشون ويذهبون وتُباع الأرض وتُشتري وهو وحده الثابت الخالد، قابعًا وراء مكتبه الضخم وعلى يمينه أكواخ الدفاتر أقل دفتر منها يزن عشرة كيلو جرامات، وعلى يساره أكواخ. وهو العالم الخبير بكل أحوال التفتيش وتاريخه، يعرف كل فلاح بالاسم والأب والأم، ويذكر السلفة التي أخذها فلان حتى قبل أن يفتح الدفتر، يعامل الفلاحين — رغم عشرته الطويلة لهم — بأبلغ الحذر ويختلط بهم ويضحك معهم ويستشيرونه في أحوالهم وأخص خصائصهم، ولكنه دائمًا مسيحة أفندي الباشكاتب.

واللقيط جعل الفار يلعب في عبه لأنه أدرى الناس بالإشعارات التي تُروج في التفتيش وخاصةً تلك التي تُروج عنه وعن عائلته. ومسيحة أفندي كان له ثلاثة أولاد: اثنان منهم في ثانوي والثالث الأكبر أخرجه من المدارس وسعى حتى جعله كاتباً في عزبة قريبة. وكانت له ابنة واحدة جعلها تأخذ الابتدائية ثم أقدها في البيت تنتظر العريس، والعرسان قليلاً؛ إذ من أين يعلم العرسان بهذه الغادة الجالسة تنتظركم في ذلك المكان النائي الكائن على شمال الدنيا؟ وحتى كونها أجمل بنت في التفتيش لم يشفع لها. فبالمقارنة إلى بنيات الفلاحين كانت لنده ببيضاء كالقطن المندولف. لونها وحده كان كافياً ليجعلها ملكة جمال، مع أنها كانت حين تسافر إلى أقاربها في شبرا مصر مع أمها كانت الأم تسمع بأذنها همسات قربياتها والجارات بأن أنفها كبير وفمها أوسع قليلاً مما يجب، وقدّها غير ممشوق وشعرها خشن أكثر.

ولكن هذا يحدث في شبرا مصر، أما في التفتيش فهي الجميلة بلا منازع، الجميلة إلى الدرجة التي كان الشاب من شباب الفلاحين يُدق قلبه بالانفعال حين يلمحها من بعيد تُطل من شباك بيتهما، أو تتمشى مع عائلتها وعائالتها المأمور على الترعة.

والمشكلة في عائلة المأمور هذه؛ فزوجته السيدة أم صفتون فلاحة، أو هكذا تبدو حين تتحدث مع السيدة عفيفة زوجة الباشكابي التي تربت في مصر وتعلمت وتمدّنت. ولأن السيدة أم صفتون كانت زوجة الرئيس فقد كانت السيدة عفيفة على الدوام تُحرجها وتُظاهر لها مدى فلحها وجهها، وتفعل هذا بلباقة شبرا وحذر زوجها مسيحة. وكانت أم صفتون تغضب وتركب — حينئذ — رأسها وتتحدى وتقضى الساعات الطوال تلعن عفيفة أمام نساء الفلاحين وتتالى منها. والمشكلة أيضاً ليست في المأمور وعائلته، المشكلة في ابنه الوحيد صفتون، كان في العشرين من عمره راسباً لثالث مرة في التوجيهية مدللاً من أبيه وأمه واللخلاف وكل قاطن في التفتيش. طوال النهار معلقاً البندقية الخرطوش في كتفه، مرتدياً جلباباً بليداً أبيض مثل الجلاليب التي يرتديها الفلاحون كنوع من العيادة، وبرنيطة صفراء ومنظاراً أسود ومنقباً عن اليمام يصطاده، ولا يحلو له إلا صيد اليمام. وكان لا يحلو له الصيد إلا على الترعة المارة من أمام بيت الباشكابي. والعلة يعرفها الجميع، فمن أعوام مضت والناس تتحدث عن الصائد واليمام، وعن سي صفتون والسيدة لنده، والغرام المشوب الذي تحده الترعة، ويحده عدم وجود الفرصة واختلاف الدين ويحبس في صدر صفتون، وينغلق عليه صدر لنده بالذات، ولكنه أحياناً يُطل بذراعها حين ترتفع وكأنها تمسك حديد النافذة، ويعني ارتفاعها تحية مستخفية خجلة بصورة يقولون: إنَّ لنده

تحتفظ بها في ذلك القلب الذهبي الذي يتدلّى من عنقها المرمر الأبيض بخطابات يقولون إنها تُتبادل عن طريق محبوب، ومحبوب هو بوسطجي التفتيش؛ إذ لم يكن للتفتيش مكتب بريد، محبوب هو الذي يذهب إلى محطة قطار الدلتا الكائن عند أول التفتيش، وحين يجيء القطار الصغير المتدرج يتشعّب هو في النافذة المخصصة للبريد ويعطي للمستخدم ما معه من خطابات مصلحية وأهلية ويسلّم منه الوارد من الخطابات، وكان محبوب قصيراً جدّاً، لا يكاد يبلغ طوله طول الأطفال؛ ولعله لهذا كان يسبق الناس ولا يمل من التنكّيت على نفسه. كان صغيراً وملامحه صغيرة وساقه كانت لا تتعدي الشبر، وفي نفس الوقت أغرب بوسطجي؛ إذ لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة ومع هذا ومن قلة أولئك الذين يأتي لهم خطابات في التفتيش كان يعرف بطول المران الخطاب القادم من المنصورة للمأموري، من ذلك المكتوب بالقلم الكوبيا وبخط مائل القادم من الجعفريّة من قريب الشيخ شعبان له.

وهكذا كان محبوب يوزع خطاباته، يعطي لمسيحة أفندي الخطابات المصلحية ويوزع البقية على أصحابها دون أن يخطئ في شخص أو عنوان، حتى الحقيقة التي كان يحمل فيها الخطابات كانت صغيرة جلدها كالح مُجعد، كجلد وجهه. ومحبوب كان مُتروّجاً من زكية واحدة من أضخم وأطول نساء التفتيش، وكان الرجال حين لا يجدون شيئاً يفعلنوه يُكتفون محبوباً ويحاولون إجباره على أن يعترف لهم كيف ينام معها، ومحبوب يستغيث الرجال يضحكون لاستغاثته واعترافاته. وأغرب شيء أن زكية كانت – على عكس زوجها – تجيد القراءة والكتابة، حتى إنّها الوحيدة من بين نساء التفتيش التي كانت تستطيع قراءة الجنال، والجنال الوحيد الذي كان يأتي إلى التفتيش كان هو المقطم. ولا يدري أحد لم المقطم بالذات؟ ربما لأنّ الإداري في مصر هي المشتركة فيه وهي التي تختار، وربما لأن المقطم كان يهتم بنشر الأخبار الزراعية أكثر من غيره، وربما لأن أصحابه كانوا هم الآخرين خواجات.

وكانت زكية مدمنة قراءة الجنال، حتى إنها كانت تعترض طريق زوجها وهو قادم من المحطة وتُنزله من فوق الحمار بالقوة وتغتصب منه الجنال، ولا تعطيه إيه إلا بعد فراغها تماماً منه. ومحبوب واقف عاجز يخاف منها أكثر مما يخاف لو تأخر عن المأموري، فهو يستطيع إلقاء عباء التأخير على قطار الدلتا الذي ليس له مواعيد، أما زكية فأنّى له أمامها بالقدرة على اختلاق المعاذير، والعزبة التي يسكن وإيّاها فيها تقع قبل العزبة الكبيرة حيث الإداري، وهي على الدوام تنتظره وتقطع عليه الطريق؟

كانوا يقولون: إنَّ الخطابات يتبادلها صفوتو ولنده عن طريق محبوب، تعطيه لنده الخطاب وبدلًا من أن يذهب به لقطار الدلتا يُهُرول به إلى حيث طلقات بندقية صفوتو ولو كانت تُدوّي عند آخر التفتيش، وله الحلاوة واليمام والبتشيش.

كان خبر هذا كله عند مسيحة أفندي، وكم من مرة أوقف محبوبًا وفتشه مدعياً أنه يبحث عن خطاب، وكل مرة لا يجد شيئاً في حقيبة محبوب، ولا حتى في جيوبه حين يصر على تفتيش الجيوب.

والليوم — وبعد هذا الحادث الغريب — لعب الفار في عب مسيحة أفندي، ولم يكن وقت انصرافه من المكتب قد حان مع أنه ليست هناك ساعات عمل محدودة، إلا أنه تَعَوَّد أن يبقى في المكتب إلى وقت الغداء، ولكنه يومها قام وغادر المكتب والإدارة وعبر القنطرة الحجرية وتوجه إلى بيته القائم على رأس العزبة يتلقى تحيات الفلاحين بغمضة لا يفتح فيها فمه. ومع هذا، وفيما هو فيه لا ينسى أن يضم ذيل جلبابه ويرفعه مخافة أن تعلق قذارات الطريق. كان في زيه الدائم: الجلباب الإفرينجي الأبيض الذي ليس له ياقة، وبالبلط والأبيض والطربوش، جميعها بيضاء ولكنك لا تلمح فيها بقعة. كثيراً ما عَيَّرت أم صفوتو زوجها المأمور حين يأتي لها ببنطلونه الأصفر متسللاً في ثنيَّة ذيله الطين والحصى والتراب، تُعَيِّرُه وتقول له إنه لا يساوي قُلامة ظُفر مسيحة أفندي الذي ما رأته أبداً وعلى ملابسه ذرة تراب، بل تبلغ بمحسحة أفندي شدة حرمه على ملابسه أنه حين يسافر ويُضطر اضطراراً إلى ارتداء البذلة الوحيدة التي يملكتها، والتي تبدو على الدوام جديدة وكأنها بنت العام مع أن عمرها لا يقل عن العشرة الأعوام بأي حال، يبلغ حرمه درجة أن يضع منديلين حول ياقتها مخافة أن يتسرّب عرق قفاه إليها إذا اكتفى بوضع منديل واحد.

بقدمة قصيرة منحنية، وبوجه شاحب (إذ هو الوحيد بين سكان التفتيش الذي يعمل معظم نهاره في ظل المكتب)، وبذقَنٍ خضراء كثة، وبملابس ملمومة نظيفة ارتقى مسيحة أفندي الدرجات القلائل التي تؤدي إلى باب بيته، والباب مفتوح فلا تُغلق أبواب الدور في الأرياف إلا لِمَامًا، ودخل. وكان مسيحة أفندي ضحجة دخول معتادة ما إن يطأ عتبة الباب حتى يبدأ أسئلته واستفسراته وتعليقاته، هيه، إنتو فين؟ بتعملوا إيه؟ بعث لكم الواد بالخضار، واتأخرتم في الغدا ليه؟ اللحمة كانت عجوزة ولا إيه؟ دي كويسيه، وانتي مالك يا لنده، ضرسك تاعبك ولا إيه؟

يقول هذا وهو يهز رأسه هزّات مَن يبحث بأ نفسه عن شيء، وينتّقُّب بعينيه الرماديَّتين عما خلف كل شيء. ولكنه هذه المرة دخل صامتاً واجماً. وفي الصالة المضيئَة – أكثر من اللازم – كانت عفيفة زوجتهجالسة أمام طبلية صغيرة ومعها أم إبراهيم زوجة فقي التفتيش، ودميان سلفها أخو مسيحة أفندي، وكان الثلاثة يصنعون «شعرية»، ودميان يمسك العجينة ويفتلها بيد وبيده الأخرى كان يقرأ الفنجال لأم إبراهيم ويقول لها: ح تشوقي خير بعد نقطتين. قولي يا رب.

وكاد مسيحة أفندي ينهر أخاه، ولم تكن هذه أيضًا عادته، فهو يعرف – مثلما يعرف كل الناس – أن أخاه معتوه، وأن عقله يبدو أنه قد كف عن النمو مذ كان طفلاً، فأصبح له جسد رجل قصير كأخيه في الخامسة والثلاثين، وعقل طفل في العاشرة، وذَقَن سوداء كثَّة كُفرشة الملابس لا يلعقها إلا كل حين وحين. جلبابه الكزmir لم يتغير أبداً، وطاقيته ذات الحائط والمصنوعة من نفس قُماش الجلباب على رأسه عمره ما خلها، وعمله الخدمة في بيت أخيه، يُنظف النحاس ويقيس الدواجن، ويُعلم أرجل الكتاكيت حتى لا تتوه مع كتاكيت الجيران، ويغسل الملابس، ويُحضر الطلبات من الدكان، ويرعى الأولاد ويسحر أحذيتهم، ويفعل هذا كله وهو يحيا في ملوكوت طفولي من صنعه، يقابلك في منتصف الطريق فتقول له: إزيك يا خواجة دمياني؟ فيويفك قايلًا: الله يسلِّم، ثم يرفع وجهه إلى السماء وكأنه يقرأ ما كُتب لك، ويبلل سبَّابته وإبهامه بلعابه ويضعهما فوق ظهر يده السيرى، ثم يرفعهما ويقول لك: إن شاء الله سعيد. لعبة كبيرة للأطفال، ولعبة صغيرة للرجال، ولعبة رجالي للنساء، وكل ما كان يهم النساء، وأحياناً، هو هل دمياني ينفع النساء أم لا ينفعهن؟ بعضهن يقلن إن الست عفيفة لا تستخبي عليه وتعامله كصبي حريم. وبعضهم يقول: لا، إن ذَقَنَه الكثة السوداء خير دليل على رجولته. ويسألونه: لماذا لم تتزوج يا دمياني؟ فيوضح ضحكته الغريبة التي تبدو وكأن رجلاً يحاول أن يقلد ضحكة الأطفال ويقول: إلهي ربنا يخلدك. حتى لقد بلغ العبيث به إلى حد أن بعضهم كان يطلب منه أن يسلم، فكان يقول لهم: أنا مسلم وموحد بالله، ويقرأ الفاتحة وأية الكرسي، ورغم هذا فقد كان هناك رأي يقول إن دمياني خبيث ولكنه يستعيبط. المخرج في الأمر أن دمياني كان شقيق مسيحة أفندي الباشكاتب، وأن تسخر من شقيق الباشكاتب أمر مُحرج، أو أحياناً أمر مُبهج، وكان الفلاحين يُبهجهم أنهم يستطيعون أن يسخروا من الإدراة في مواجهتها حين يسخرون بدميان.

عسعس مسيحة أفندي بعينيه في الصالة والحجرة القريبة المفتوحة، ولكنه لم يلمح لنده. وأخيراً – وحين لم يجد بدًا – سأله عن زوجته، فقالت له: تعبابة شوية، وهبَّ فيها

مسيحة أفندي وكأنه فوجي: تعبانة ليه؟ ما لها؟ وما قولتليش ليه؟ دي نسوان إيه دي؟! وهي فين؟

قالت له عفيفة: إنّها راقدة على فراشهما، وبخطواته المتدرجّة وصل مسيحة أفندي إلى حجرة النوم. حجرة نوم عتيقة بالية بالغة القدم، نفس «جهاز» عفيفة الذي دخلت به من أعوام كثيرة مضت. الدوّلاب بلا ضلّف، والسرير جُددت ألواحه مرات، وعمداته عليها بيض ذباب أسود مُتجمّد، والناموسية مُعلقة من ثلاث نواحٍ فقط والرابعة مقطوعة. كانت الناموسية مُسدلة، وحتى قبل أن يرفعها قال — والفار قد بدأ يزداد لعباً في عبّه: ما لك يا لنده؟

ووُجدها نائمة وحسب أنها تتناوم وازداد قلبه اضطراباً، ورفع الناموسية وواجهها. كان شعرها الأصفر المُجعد الذي ما رأه أحد إلا مرتباً وأنيقاً ومعتنى به، وكأنما تدرك صاحبته بغيريتها خشونته فتحاول باستمرار أن تجعله يبدو حريرياً ناعماً. كان شعرها منكوشًا وحصل منه تغطي جبهتها، وعيناها منتفختان قليلاً وكأنما انتهت صاحبتهما من نوبة بكاء.

سألها أبوها عما بها فقالت له: عندي مغض، ولأمر ما، ربما من الطريقة التي قالتها بها، ربما من مرآها بشعّرها هذا وعيّنها المُنتفختي الجفون، لأمر ما أحس مسيحة أفندي — فجأة وبشكل قاطع — أن بنته لنده هذه لا بد أن تكون هي التي ارتكبت جريمة الصباح. إحساس دفعه لأن يتوقف عن استرساله في الكلام، ويُحذق فيها وكأنما يراها وكأنها ليست ابنته، وكأنها أنتي داعرة، لاً أول مرة في حياته، وبين شكه في هذا ويقينه من أنها ابنته، راح مسيحة أفندي يمسحها بعينيه الضيقين ويتحسّس يدها وبطنه مدعيّاً أنه يسألها عما بها، وبطنه بالذات، لم تكن له ليونة بطون الوالدات ولكنه كان يُوجعها. الشك لم يكن مسيحة أفندي قد أحشه أبداً إلا تجاه الآخرين، تجاه الفلاحين والمأمير والإدارة وكل الناس. لم يكن أبداً قد أحشه تجاه نفسه أو من هم في حكم نفسه، تجاه عائلته، تجاه ابنته لنده بالذات. حياتها علنية أمامه وأمام أنها وأمام الناس، وحتى إشاعة رسائل العيون والنظارات والإشارات بينها وبين صفات تكون علنية هي الأخرى، وحياتها العلنية هذه هي كل حياتها، فهل من الممكن أن تكون لها حياة أخرى، حياة تزاولها مع صفات ابن المأمور في الظلام؟ ليت الأمر جاء على شكل أسلطة حيري تريد الإجابة. الأمر جاء على شكل حمى داخلية اجتاحت مسيحة أفندي دون أن يكون في استطاعته النطق أو التنفيذ. لنده مغضها قد يكون حقيقياً وقد يكون حجة وستاراً،

وزوجته عفيفة قد تكون — على عهده بها — كثيرة الرغب واللت والتعليق، ولكنها رفيقة عمره الوفية الأمينة، وقد لا تكون كذلك، قد تكون هي المستترة على بنتها، بل وما أدره أنها لا تتستر أيضًا على نفسها؟

لم يُعد في وُسْع مسيحة أفندي أن يبقى بالحجرة، فقد أحس أنه يختنق وأن ليس باستطاعته الكلام. غادرها إلى الصالة حيث الشعريّة والمجتمعون حولها، رأته عفيفة مُتغَيِّر السحنة فسألته عما به، وهمهم وغمغم ولم تفهم مما قاله حرفًا. نادى على دميان أن يتبعه وغادر البيت وتلّاك ليلحّقه، وشهد جسر الترعة الممتد أمام البيت أغرب حوار يدور بين الأخوين. الدنيا حارة لافحة، والشمس في كبد السماء تتوهج ملأين أفرانها وترسل على الكون حُممها، و المسيحة أفندي سائر وبجواره دميان يحاول — لأول مرة في حياته — أن يحدثه حديثًا جديًّا، حديث الأخ لأخيه، يحاول أن يسأله إن كان قد لاحظ شيئاً أو فطن إلى شيء، يسأله عن صفات ولنده، والحرام والحلال، ودميان سادر في رواية غريبة عن دجاجة كل يوم يقيسها فيجده فيها بيضة، ولكنها لا تبيضها، مؤكداً أن البيضة لا بُدَّ فيها سر، وقد تكون مفتاح كنز ما خائف إن هم ذبحوا الدجاجة أن يذهب ما فيها من كنز وسر، وإن هموا تركوها أن يسرقها الجيران.

وأخيرًا لم يعد مسيحة يحتمل، زجره بعنف وسبه وتركه ومضى، ووقف دميان حائراً لبعض الوقت وقد توقف عن استراله، ثم ما لبث أن أدرك أن أخيه سبه وشتمه، وبيدو أن تلك أول مرة كان يحدث فيها هذا؛ إذ ما لبث أن راح يبكي وقد خلع طاقيته يجفف بها دموعه، وبدت رأسه صلعاء تقدح شرّاً تحت الشمس.

في نفس ذلك الوقت كان صفات ابن المأمور متکأً في شبه غيبة على مسند الكتبة الوحيدة في بيت أحمد سلطان كاتب الأنفار في التفتيش، وتلك كانت جلسة صفات المختارة، حين ينتهي أحمد من عمله ويئوب إلى بيته، فيضطجع الاثنان أحياناً حول «الجوزة»، وأحياناً حول امرأة وأحياناً حول فنجال. أحمد سلطان هو الأعزب الوحيد بين موظفي التفتيش، وهو أيضًا الوحيد الذي يقطن بمفرده في بيته الملائق لبيت مسيحة أفندي. ومن بين الموظفين جميعاً فإن أحمد سلطان هو الوحيد القريب إلى قلب صفات. كان شاباًً مثله، وأهم من هذا كان أكبر منه في السن والتجربة والمعرفة الأكيدة. لم تكن صداقة بالمعنى المفهوم هي التي تجمعهما، فأحمد سلطان في معاملته لصفات لا ينسى أبداً أنه ابن المأمور رئيسه ورئيس التفتيش، وفي معاملة صفات لأحمد حُدْ مُعِين من التحفظ. فأحمد هذا

لا يجيد القراءة والكتابة والله أعلم كيف وصل إلى وظيفته تلك، شتان بينه وبين صفاتي الذي يستعد لدخول الجامعة وإكمال تعليمه في القاهرة. ولكن — مع كل هذه الاعتبارات — فتألفهما مضرب الأمثال، وأيضاً مبعث شقاء فكري أفندي المأمور الذي كان لا يطمئن أبداً إلى أحمد سلطان، ولم يفلح زجره ولا حتى الشجار العنيف في فصم هذه العلاقة.

كان صفات مُتكئاً على مسند الكنبة يتبادل هو وأحمد سلطان سيجارة مُلغمة، يتناوبان أخذ أنفاسها وهما حريصان في نفس الوقت على إبقاء طفيفتها عالقة بالسيجارة، وأكأنما لو وقعت الطفيفية ذهب المزاج. وكان ثمة حديث يدور، وأهم خبر في ذلك اليوم كان هو حادث اللقيط، وطبعاً كان الحديث يدور حوله.

والواقع أنَّ ما كان يدور لم يكن حديثاً بالمعنى المفهوم. كان صفات في قمة انفعاله لعرفة علاقة أحمد سلطان باللقيط، وكأنَّ قد ثبت لديه — بطريقة قاطعة — أنَّ بينهما علاقة ولم يبق إلا أنْ يعرف كنهها. ولكنَّ كان لا يريد أنْ يبدو في عين أحمد سلطان كالطفل المحب للاستطلاع، كان يريد أنْ يجعله يعتقد أنَّ أسئلته إنما هي أسئلة رجل مُجرب لرجل مُجرب. ولعلَّ هذا هو السبب في طريقة جلوسه على الكنبة حيث كعى كعية رجل مُجرب ذكي خبير، ولعلَّه أيَّضاً السبب في تلك الابتسامة التي قصد منها أنْ يقول لمحثة: أنا كاشفك قوي! بل حتى مداعبة شاربه، الشارب الباهت الذي لم يتعد عمره العام الواحد، والذي تَعَمَّد صاحبه أنْ يحيطه بالرعاية وينمِّيه لكي يبدو ابن أعوام. حتى مداعبة الشارب كانت تتم بروية وكأنَّها مداعبة كبير لشاربه الكبير.

وكان أحمد سلطان ينصلت وابتسامة كبيرة لا تغادر ملامحه. ابتسامة كان صفات يحسُّ أمامها دائِماً أنه مهما قال وتحدث عن مغامراته فهو صغير، مجرد تلميذ خائب في مدرسةٍ أحمد سلطان ناظرها. ابتسامة يظن صفات أنها ابتسامة تهُّكم وسخرية، مع أنها قد لا تكون كذلك.

ظلَّ صفات يتحدث وأحمد سلطان ينصت، وأخيراً بدا أنَّ صفات قد كف عن إخراج كل ما في جرابه وأفلس، فقال لأحمد: أبو حميد، بِذَمَّتك ابن مين ده؟ هنا قهقهة أحمد سلطان، واحدة من قهقهاته العالىات التي كانت تُسمع في بيت مسيحة أفندي، وكلما سمعها مسيحة — تخترق الجدران وتصل إلى آذانه وتتكاد تخرقها — اشمأنط، ولوى بُوزه، وأفلتت من فمه كلمة سباب. ولأمِّ ما لم يطمئن صفات لقهقهة سلطان، وحسبها أنها قهقهة تهُّكم هي الأخرى، ولعلَّ هذا هو السبب في أنه استطرد قائلاً: تعرف إنك غويط قوي، كده ولا لأ؟

وقال أحمد — وقد آتت قهقهته إلى ابتسام: ليه؟

ومضي صفت يشرح له لماذا هو خبيث وغويط، وكيف يستحل لنفسه أن يقوم بمخاطر أخرى — لا يعرفها صفت ولا تصل إلى علمه — مع أنهما في الخير والشر سواء. وحاول أحمد أن يغير الموضوع ويسأل صفت عن آخر أخباره مع لنه. والحقيقة أن ذلك الموضوع كان هو موضوع صفت المفضل لا يمل الحديث عنه، ولا تخلو جلسة مع أحمد سلطان منه. فعلى الرغم من كل شيء، على الرغم من بندقية الصيد المعلقة في كتفه ومخاطراته في القاهرة وعاصمة المديرية، وعلاقاته الطياري مع بعض نساء التفتيش وبناته، فقد كانت لنه تحتل من قلبه مكاناً خاصاً تحيى فيه باستمرار. لم يكن قد قابلها كثيراً، وكل ما دار بينهما من حديث لم يتعد جملة تُعد على الأصابع، تبادلاها خلال علاقة استمرت سنين طويلة بين عائلتيهما ولكن كان هناك شيء يحسه في نفسه تجاهها ويحسه في نظراتها تجاهه، شيء غير منطوق أو مرئي، ولكنه موجود وقائم، يُغذيه بشجن خفي يدغدغ أحاسيسه الداخلية، ويجعله كلما شعر به يريد أن يبكي فعلاً، أو أن يضحك، أو يهدم سراية التفتيش وكل مبانيه. وأحياناً حيث يتمشى على الترعة تجاه بيت مساحة أفندي، ويجد لنه واقفة في الشباك بعيدة، يبدو وجهها ناصعاً تحوطه حالة النافذة المظلمة، حين يراها هكذا يحس بتياز غريب قد سرى فيه وجعله يريد أن يطير ويغنى، أو يقف في مكانه لا يفعل شيئاً بقية حياته إلا أن يمد بصره خلسة بين الحين والحين ليجدها تتنظر ناحيته أو على الأقل ناحية الترعة. وآه لو رفع البندقية في الهواء ونقلها من كتف إلى كتف محاولاً أن يجعل من النقلة إشارة تحية، ورفعت هي يدها اليمنى وصعدتها لتمسك بها حديد الشباك من أعلى وكأنها ترد التحية، حينئذ تميد به الأرض ويظل طوال يومه وكل ليله يتذكر اللحظة، ويعيد الحركة ببطء أمام عينيه وهو سادر بعيداً عن الدنيا وأهله والتفتيش، في غيبة منتشية لا يريد أن يصحو منها.

وأحمد سلطان هو مكمن سره. في حجرة نومه الخالية تقريراً من الأثاث يترك صفت نفسه على سجيتها، ويقص على أحمد سلطان دقائق ما حدث كلما حدث شيء، ودائماً تختتم الجلسة بذلك السؤال الحائر: ترى هل تحبه لنه؟

كلما سأله هذا لأحمد أكد له أنها تحبه، ولكن تأكيده ليس مهمّاً. المهم هو ابتسامته التي ينطق بها تأكيده! لو فقط يؤكد له مرةً بلا ابتسامة لامن — حقيقة — بصدق ما يقول.

وكان حريّاً بصفوت أن يستجيب للباب الذي فتحه أحمد ويخوض معه في سيرة لنه، غير أن هذا لم يكن هدف صفت في ذلك اليوم. كان يريد أن يعرف هو عن مغامرات

صديقه، أو — على الأقل — تلك المغامرة التي من المحتمل أن تكون قد أدت إلى هذا اللقاء الميت.

ويبدو أنَّ إصرار صفوت قد فعل فعله، فبعد سيجارتين انفكَّت العقدة عن لسان أحمد سلطان، ومضى يحده، أو بالأحرى يعترف له، وراح يقول له: وعارف مرات الحج بدوي وبنتها؟

فيقول صفوت: هيَه؟

فييعدُّ أحمد سلطان يقول: وحياتك كانت واحدة منهم في الأودة هنا معايا على السرير اللي ما غيروش الزمان، والثانية مستحبة فوق السطح، وعارف البت دي اللي كانت بتشتغل مع الأئفار اللي بيفرزوا القطن؟ البت الهايشة دي؟

فيقول صفوت: أنهي واحدة؟

— البت الطويلة الهايشة دي.
— آه.

— وحياة شرفك هي التي قالت لي بعضمة لسانها: خدني.
— وعملتها؟

— يعني أكسفها يعني يا سي صفوت؟

وشهدت حجرة أحمد سلطان في تلك الليلة رواياتٍ كاد يقف لها شعر صفوت، روايات جعلته يعتقد أنَّه — بكل مغامراته وما فعله — ليس سوى قطرة من بحر أحمد سلطان. بل الأمر لم يقتصر على هذا، ولم تقتصر اعترافات أحمد سلطان على نفسه. تعددت اعترافات ومضت بكلمة وراءها كلمة وحقيقة إثر حقيقة، تكشف عن الوجه الآخر لحياة التفتيش، الوجه المستتر دائمًا الذي لا يظهر أبدًا ولا يطلع عليه أحد، الوجه المُعَدُّ المتشابك الحافل بكل ما هو أغرب من الخيال، علاقات بين أبناء ونساء آبائهم، وبين فاضلات وفاسقين، وفاسقات وفاضلين، وحجاج و«تملية»، وحتى الموتى وردت في الحجرة سيرتهم.

وأخيرًا وبعد مقدمة طويلة ساقها صفوت للتدليل على حياده، وعلى أنه فقط يريد أن يعرف — بصرف النظر عن علاقته الشخصية بالمسألة — طرق صفوت الموضوع الذي من أجله جلس تلك الجلسة واستغرق كل تلك المدة الطويلة في جس النبض، سأله أحمد سلطان — وهو يستحلفه بكل مُقدَّس وشريف — أن يقول الحقيقة، سأله عما يعرفه عن الوجه الآخر للنude.

وهذه المرة — وبوجه جاد وملامح لا تحتمل الشك — نفى أحمد سلطان أنه يعرف عنها أي شيء يدعو للخجل. وعاد صفوت يُلْحُ في سؤاله، وعاد أحمد يُلْحُ في نفيه وتأكيده.

ومع هذا، وحين قام صفوت وقد بدأت الشمس تستعد للمغيب، حين قام ليستعد هو الآخر للرجوع إلى بيتهما، كان لا يزال غير مطمئن تمام الاطمئنان إلى ما قاله أحمد سلطان عن لندن.

أما أحمد سلطان فقد ظل برهة طويلة جالساً على نفس المقعد «الجريدة» ذي المساند الذي كان يجلس عليه، يُحْدِق في سقف الحجرة ومن خلال نافذتها الوحيدة، ويتأمل. ثم بدأ لمعان غريب يتسلل إلى عينيه، لمعان كومض الجنون أو برق النشوة. ثم بدأ ينتمل في كرسيه وكأن مشكلة كبرى تُحِيره، ولكن تململه لم يدم طويلاً فما لبث أن قام من مكانه وغادر البيت. وظل وقتاً يحوم في شارع العزبة الرئيسي بحذر — مع أنه الوحيد بين رجال الإدارة الذي كان قد كسر قانون عدم اختلاط الموظفين بالفلاحين — حتى أصبح وجوده في قلب شارع العزبة أو في أحد بيوتها أمراً لا يثير اندهاشاً أو تساؤلاً. عند باب بيت مفتوح توقف قليلاً، وبِهَفَةٍ من ثوبه وإشارة من يده كانت الجالسة في الداخل قد أدركت هدفه وفهمت أنه يريد لقاءها عند الجامع.

والجامع كان يقع في زاوية العزبة الغربية، جامع مبني ببناءٍ رخيصاً من الطوب النيئ، ومئذنته قصيرة تبدو كالأصبع المبروقة المبتورة، والطريق إلى الجامع حال في أغلب الأحيان؛ إذ نادراً ما يُستعمل للصلة إلا في يوم الجمعة، أما بقية الفروض فيؤديها الفلاحون في «المُصلّى» المقام على الترعة، والذي كان مقامه في أول الأمر على الخليج في مواجهة المنزل الذي يقطن فيه المأمور، ولكنه أمر بهدمه وعدم استعماله، وأقام ذلك المُصلّى الآخر؛ إذ كان يضايقه — إلى درجة الغضب — مرأى الفلاحين وهم جلوس في المصلى أمام بيته «يرحون» البيت وسكناه، على حد تعبيره، والأدهى من هذا حين يقبلون في الصباح الباكر ويخلعون ملابسهم ليغطسوا في الترعة ويتظهرون.

لم يمض وقت طويل على أحمد سلطان — في ذهابه ومجيئه وراء الجامع — حتى بدا له من خلال ظليليات المغرب ذلك الثوب الأسود الفضفاض الذي يعرف صاحبته، كانت أم إبراهيم زوجة فقي الجامع وخطيبه ومؤذنه، امرأة فارعة الطول قمحية ذات قدرة خارقة على وضع الكحل في عينيها وحَبْكَ المنديل على جبينها وإمساك طرف ثوبها بيدها، وهفها باليد الأخرى حين تتشي وتمخطر.

وكانت معرفتها بأحمد سلطان وطيدة؛ إذ كانت من أوائل من عرف من النساء حين جاء أول ما جاء إلى التفتيش، ثم تطورت تلك «المعرفة» إلى نوع من الصداقة، تطبع له

الحرام

أحياناً، وتهاديه بطبق قشطة أحياناً أخرى، مع أنها كانت قد فقدت الأمل فيه وفي تجدد علاقتها.

سلم عليها أحمد سلطان بحرارة، وقرصها في بطنها كعادته في الأيام الغابرة، وبعد عتاب طويل منها وحجج منه قال لها: عايزك في حاجة.

– أومن.

– لنده.

قال الكلمة وسكت، ولم تسأله هي أيضاً مُنتظرةً أن يُكمل، وخائفة في الوقت نفسه ألا يُكمل، هي فاهمة وهو فاهم ولا داعي للتغابي.

قالت – بعد وقت وبعد أن تأملت بسمته وملامحه الحلوة: بس دي صعبة ما أقدرش عليها.

– إيه؟

قال أحمد هذا وهو يقرصها مرة أخرى في بطنها، وقوست هي نفسها لتُبعِد بطنها عنه ولتقرب وجهها منه وتحاول أن تثنية، ولكنها كانت تعرف أن محاولتها فاشلة، فما صمم على أن ينال شيئاً إلا ناله، وما يقوله إن هو إلا أمرٌ عليها أن تطيعه.

صَمَتَ بُرْهَة، ثُمَّ انفَرَجَت ملامحها قليلاً وابتسمت، ورفعت سبابتها وأشارت إلى عينها اليمنى ثم إلى عينها اليسرى، وكأنها تقول: من عيني دي ومن عيني دي.

وفي ذلك الوقت جاءهما من بعيد صوت خشن مبحوح يؤذن لصلاة العشاء، صوت «أبو» إبراهيم. ومع أن صاحبه كان بعيداً عن المصلى حيث الأذان والصلاوة، إلا أن الصوت هبط عليهما فأنهى المقابلة في الحال. واستدارت أم إبراهيم تقطّق بشبشبها عائدة وكأن صوت أبي إبراهيم قد فاجأها مُتَلِّبَة، أما أحمد سلطان فقد مضى على مَهْله، ينظر إلى العزبة والأصوات القليلة المُعثَّرة فيها ويشم رائحة الأرض والسمك والبصل وهي تختلط بروائح الدخان القابضة، ويتأمل الليل المحيط الكبير، ويحلم بلنده حين تأتي ذات مساء إلى بيته، إلى حجرته العتيقة، خجل خائفة، وكيف سيؤنس وحشتها، وسيحيل خجلها بقدرتها الخارقة إلى جرأة ودلال وإقدام.

طال العشاء على غير عادته، واستمرت السهرة القصيرة التي تَعْقِبُه جزءاً أطول من الليل، وظل جنيد فاتحاً دكانه مُشعللاً «كُلوبَه» إلى ما بعد العاشرة، وعلى حائط القنطرة الحجرية امتدت جلسة الرجال، وكان لا حديث إلا عن اللقيط.

ولم تكن العزبة الكبيرة وحدها هي التي شغلت بالحديث، فقد انتقل الخبر إلى العزب المجاورة، بل والقرى المجاورة أيضًا، حمله إليها «الشَّغِيلَةُ» الذين يعملون في التفتيش ويقطنون في تلك القرى. فالحادث جلل والحياة في التفتيش تمضي سهلاً لينة لا يعكر صفوها إلا خناقة تنشب بين اثنين أو سرقة صغيرة تُرتكب. أما أن يعثروا ذات صباح على لقيط مقتول، فذلك أمر تتعقد له المجالس ولا تنفخ، ويختلف الناس حوله ولا يتفقون، والناس في التفتيش يجيدون الكلام، تلك طبيعة جُبُلوا عليها واشتُهروا بها، بل يقولون إن سببها هو السمك الذي يكاد يكون الطعام الرئيسي لأهل التفتيش وأهل المنطقة بأسرها. يجيد الواحد منهم حَكْيَ الحكاية وإبراز تفاصيلها، ويجيد إيراد الحجج وتقنيدها، حتى نطقهم للحروف، تجده — من كثرة استعمالهم للكلام — واضحًا لا لبس فيه. الحديث لديهم هواية، بل يكاد يكون هوايتم الوحيدة ولهم فيه نواخُ أولئك الذين إذا حضروا مجلسًا كان لسانهم أذلّ لسان وتصدروه. نواخُ كثيرون، الأسطى محمد أحدهم ومحمد أبو طلبة، وسيدهم جميًعاً الشيخ عبد الوارث الكبير. والشيخ عبد الوارث لا يجيد الحديث فقط، ولكنه أيضًا يجيد الفلاحة، والفلاحة حرفٌ فيها المهرة والكسالى، والأغبياء والأذكياء، فيها الذي يحدد بنفسه ميعاد الري، وفيها من يُروي أرضه فقط لأن جاره أروى. والشيخ عبد الوارث يكاد يكون أكثر أهل التفتيش حذقًا للفلاحة، بل يكاد يكون المستشار الدائم لل فلاحين إذا أُعِيتُ أَحَدُهُمُ الْحِيلُ في أرضه. وهو بشاربه الذي ليس بالكث أو الرفيع، وعماته النظيفة دائمًا وبشرته السماء وعيونه البُنيَّتين الواثقَتين، كانت كلماته المطمئنة البطيئة فيها القول الفصل في كل خلاف ينشأ، بل كان المأمور لا يَبْتُ في أمر من الأمور الكبرى في التفتيش مثل ميعاد زرع الأرز، أو حرش أرض القمح وتسويتها لاستقبال حبات الأذرة، إلا بعدأخذ رأي الشيخ عبد الوارث، إذ رأيه دائمًا فوق رأي مستشاريه من الخولة وكبار الفلاحين.

وكان الشيخ عبد الوارث يتصدر الجالسين أمام دكان جنيدى، ولأول مرة كان يبدو عليه أنه بلا رأى. كانت الآراء كلما تلاطمت واختلفت ونظر الجالسون إليه يستطعون ملامحه وينتظرون قوله، كان لا يفعل شيئاً أكثر من أن يتنحنح كالمحرج، ويقول: الله أعلم يا جماعة.

وحتى لم يطل بقاوئه معهم، لم يلبث أن استأذن وقام مُدعِيًّا أنه لم يُصلِّ العشاء، وعليه أن يُصلِّيها قبل أن يدهمه النوم.

وبقي الجالسون — مثلهم مثل الساهرين عند القنطرة أو في البيوت — حائرين، والغرابة بدا أنهم بريئون من التهمة، والعزبة لم تترك امرأة فيها أو بنتًا إلا ونُوقشت

سيرتها وتأكد الناس من أنها ليست الفاعلة، لم يبق إلا أن اللقيط من عزبة مجاورة أو من قرية أخرى، ولكن السؤال كان: لماذا يكبد أحدهم أو إحداهن نفسه أو نفسها مشقة السير الطويل لإلقاء اللقيط وكان بُوسعه أو بُوسعها أن يتركه في قلب الغيطان؟

بيتان فقط من بيوت التفتيش لم يُناقش فيما أمر اللقيط أو جاءت سيرته. بيت فكري أفندي المأمور الذي سأله زوجته على الغداء عن قصة الجنين، فاكتفى بأن غمغم بعض غمغمات تعرفها أم صفتون جيداً، وتعرف أنه لا يقولها إلا حين يود إقفال باب الحديث. وحين يريد فكري أفندي إقفال باب الحديث فمعنى هذا أن باب الحديث يجب أن يُقفل، فهو رجل لم يتزوج امرأة تشاركه حياته، تزوج واحدة تخدمه، واختارها حلوة تجيد الطبيخ ولا تعرف شيئاً عن ذلك العالم الغريب الكائن بعد باب المنزل والحادف بالشروع والآثام.

ولهذا فقد كان يجد الحرج البالغ كلما دُعيت زوجته لزيارة بيت مسيحة أفندي، أو جاءت عفيفة وأولادها لزيارتكم. في عرفه أن تلك الزيارات هي الأخرى بدعة لا تجوز، والزوجة شيء خاص به لا يجب أن يطلع عليه أحد، ولا حتى نساء غيره. الحديث عن اللقيط حينئذ مع زوجته أمر خبيث لا يجوز الخوض فيه؛ إذ هو شيء يمت إلى العالم البغيض الفاجر، عالم ما وراء الباب.

أما في بيت مسيحة أفندي فلم يجر أحد على فتح باب الموضوع، فالأب كان مغموماً لا يدري أحد لم؟ ولنده راقدة لا يزال المغص رابضاً في بطنها، في المساء فقط وحين أوى مسيحة أفندي وعفيفة إلى فراشهما وراحت هي في النوم العميق ظل هو - بعده - يتأملها في رقتها، برقبتها الرفيعة الطويلة التي كثيراً ما تلف حولها منديلاً، وشعرها الأكتر الأسود القصير الذي أورثته لأولادها. ظل مسيحة يتأملها برهة يكاد يلکرها بکوعه ل تستيقظ و تشاركه حيرته، غير أنه لم يفعل؛ فالموضوع الذي يشغل باله لم يكن يستطيع أن يُصرّح به لأحد، حتى لو كان هذا الأحد زوجته عفيفة، وكيف يُصرح لها بالهواجس الغريبة التي تطوف في باله وتُلْحِ عليه؟

كان شكه في مرض لنده قد ازداد إلى درجة بدأ يفكر فيها أن يأخذها إلى الطبيب في المركز في اليوم التالي ليكشف عليها، لا ليرى إن كانت مريضة حقيقة، ولكن ليرى أيضاً كنه ما حل بها. البنت تعدد سن الزواج، وهي حلوة وموفورة الصحة وتحيا في فراغ كبير، ومن الجائز جاً أن يكون الشيطان قد أنواعها.

كان قلب مسيحة يهبط كلما وصل إلى هذا الحد من تفكيره، كان يحس به حقيقة يهبط، وكأنه يسقط من على، ولكن الهواجس لا ترحمه، تمضي تصور له ما يمكن أن

يحدث لا قدر الله، الفضيحة وخيبة الأمل والحرارة العظمى، فمن الحال حينئذ أن يتزوجها ابن المأمور لألف سبب وسبب تراه ماذا يصنع حينئذ، وبأي وجه يحيا في التفتيش، وبأي صورة يواجه الناس؟

وتستبد به الخواطر عنيدةً فارضةً نفسها عليه، تلهم عقله وتجعله يتقلب في الفراش ناظراً بحقد إلى عفيفة المستغرقة في ساق نوم، مخنوقة بالدموع المحتبسة في حلقة التي لا تزيد أن ترحمه هي الأخرى وتسيل من عينيه.

وبينما هو في خضم ذلك الكابوس الرهيب عنَّ له سؤال: أليس من الجائز أن يكون مخطئاً؟ ماذا لو ثبت أن اللقيط مثلًا ابن واحدة من الغرابوة، لا يُعد تفكيره على هذا النحو واتهامه لابنته وطعنها ضربًا من الجنون والعَّنة؟

تشبث مسيحة أفندي بالخاطر، وكأنَّ فيه إكسير نجاته، واندفع يبحثه على وجهه وبُقلبه، وكلما فعل هذا بدأ قلبه يعود إلى مكانه من صدره وبدأت حركته تقل وبدأ يتنفس براحة وحرية، وبدأت تتأؤيات النوم تأخذ طريقها إلى نفسه.

وفي الصباح كان أول ما فعله حين أصبح في حُجرة مكتبه أن سأله عن المأمور. فلما قيل له إنه في مكتبه دق الباب بحرصه المعتاد ودخل، وبعد تبادل التحية تفرَّس فيه فكري أفندي المأمور طويلاً ليدرك هدفه الخبيث من تلك الزيارة الصباحية، فزيارات الباشكاتب لمكتبه قليلة ونادرة، ودائماً وراء كل زيارة هدف، والهدف على الدوام خبيث. غير أن الذي حير فكري أفندي أن مسيحة لم يقل في زيارته الشيء الكثير، ظل جالساً مُدَّةً يتحدث في الأمور المعتادة، ثم سأله سؤالاً عابراً عما تم في حكاية اللقيط. أجايه فكري أفندي عليه بحسن نية، ولكن ما أدهشه أن مسيحة بدأ يطعن في الغرابوة فجأة وبشدة، ويُصر — ويُكاد يُقسم — على أن الفاعلة لا بدَّ واحدة منها. ثم ما لبث أن استأذن محتاجاً بالعمل، وترك فكري أفندي حائراً في تفسير هذا التحيز المفاجئ منه ضد الترحيلة، ولم يُنْجِ لفكري أفندي أن يختار طويلاً، إذ دق بابه بعد قليل، وبشخطته المعتادة قال: ادخل. وإذا بالقادم محبوب بوسطجي التفتيش، وإذا ببرنيطته المصنوعة من قماش أزرق مائلة على جبهته والدموع تملأ عينيه، والشهقة ترفعه ولا تتركه إلا لشهقة أخرى تهوي به، وإذا بالمشكلة التي جاء لأجلها أغرب مشكلة: ما لك يا محبوب؟

قالها فكري أفندي وهو يغالب الضحك.

ولم يرد محبوب، مد يده القصيرة إلى الحافظة المتدلية بجواره والتي قَصَرَ «إبزيمها» إلى آخره ليمعنها من أن تلامس الأرض، مد يده وأخرج منها خطاباً مفتوحاً ظرفه بعناية وبلا تمزق، ولم يقل حرفًا.

تناول فكري أفندي الخطاب، وقلب الظرف فوجد مكتوبًا عليه بالقلم الكوبيا: يصل وُيُسلَّم ليد أخيه المحترم عبد المنعم أفندي عواد، بطنطا، شارع الجامع الأحمدى، نمرة ٣٤، خصوصي لحضرته.

لم يكن في العنوان ما يثير وما يمكن أن يصلح سببًا لدموع محبوب وشهقاته، حتى كاد للأمور يعيض الخطاب إليه لولا أن «محبوب» تمالك نفسه وجَفَ دموعه ومضى يحكى كيف بدأ يشك في الخطاب.

قال محبوب: إنَّ سعادات زوجة الأسطى عبده سائق اللوري، والتي تقطن في نفس العزبة التي يقطن فيها محبوب، استوقفته وهو راكب الحمار في طريقه من العزبة الكبيرة إلى محطة الدلتا، استوقفته عند عزبتهم وطلبت منه أن يأخذ هذا الخطاب معه. ولما سألها عن صاحبه – إذ من غير المعقول أن تكون هي صاحبته – قالت له إنه من زوجها لقريبه له في طنطا، لم يأخذ محبوب ويعُطِّ معها، فهو يعرف «صحيح» أن لزوجها قريباً في طنطا وأحياناً تأتيه خطابات من هناك. صدَّقها ومضى في طريقه إلى القطار، ولكنه بعد أن تجاوز العربية بقليل بدأ يحس وكأن الخطاب – دون بقية الخطابات التي معه – يُشكُّ في جنبه ويُقْلَّقه. وعلى هذا وجد يده تمتد إلى الحقيبة ولا يستطيع أن يفرق بين خط وخط، إلا أن «شيء إلهي» قال لي إن الخط ده خط مراتك يا واد يا محبوب». وفجأة بدأت تتكشف أمامه أمور لم تخطر له على بال، زكية امرأته لها قريب في طنطا كان قد أتى لزيارتهم منذ بضعة أسابيع ومكث لديهم أيامًا ثلاثة ثم غادرهم. وقربها هذا أفندي قالت له زكية إنه تلميذ في مدرسة الصناعية، ورغم أنه كان يبدو كبيراً جدًا عن تلميذ بشاربه الكامل وذَقَّته وهبَّته، إلا أنه صدَّق زكية وأخذ قولها بحسن نية، ولكنَّه الآن – والخطاب في يده – يحس بحروفه وكأنها ملامح زكية وتقاطيعها ورائحتها، لم يعد ثمة مجال لحسن النية. والذي حدث أن «محبوب» غيرَ من اتجاهه، وبدلًا من أن يذهب للمحطة جاء للشيخ علي أبو إبراهيم فقي التفتیش، وكان قد فتح الظرف باحتراس وأخرج الخطاب الذي فيه وطلب من الشيخ علي أن يقرأه.

أخذه الشيخ علي وأخرج منظاره السلك وأمعن فيه بصَّا وتَفَلِّيَّةً وقرأه في سره، وما إن انتهى حتى هَبَّ في محبوب: الله يقل مقامك يا ابن زبيدة، إيه يا واد الكلام الفارغ ده؟ وكاد محبوب يتهاوى من طوله المتواضع القصير، فقد أيقن أنه كان في شكوكه على حق، ومال على الشيخ علي وقبَّل يده وبَلَّها بدموعه طالباً منه أن يصنع فيه معروفاً ويقرأ

له الخطاب. وقرأه عليه الشيخ، فإذا به من زوجته زكية، وإذا به خطاب غرام منها، وإذا بها لم تكتف بهذا بل أرادت أيًضاً استغفاله وأن يحمل لها هو خطابها إلى عشيقها فيما يحمل من بريدٍ مُستغلةً — الفاجرة — جهله بالقراءة والكتابة.

طوال الفترة التي استغرقها محبوب في سرد حكايته كان فكري أفندي يكاد يموت من الضحك، ولم يكن حتى يبذل أي مجهود لإخفاء ضحكه بل أكثر من هذا كلما رأى «محبوب» منفعلاً ومتأثراً داهمته الرغبة في الضحك.

وحين انتهى محبوب وعاد ينخرط في بكائه وشهقاته لم يُعد فكري أفندي يتمالك نفسه. انفجر في نوبة ضحك عالية، ودق جرسه واستدعي مسيحة أفندي وأحمد سلطان وكبير الخوَّلة الذي تصادف وجوده في المكتب، وتولى نيابةً عن محبوب قص الحكاية وتولوا هم نيابةً عنه الضحك، ومحبوب سادر في انفعاله وبكائه.

وقال له فكري أفندي وهو يمسح الدموع عن عينيه الضاحكتين: وما رحتش ضربتها ليه يا محبوب؟

— أضرب مين يا حضرة المأمور؟! أنا قدها؟!

قال محبوب هذا وانخرط في البكاء، وانخرط المتجمرون حوله في الضحك، فهم يعرفون زكية بطولها وضخامتها وجبروتها، وأمامهم محبوب بقصره ونحافته وصوته القصير النحيف.

وحين شبعوا ضحكاً، هدده المأمور على محبوب واعداً إيه بأنه سيؤديها له، بل أرسل في طلبها فعلًا وقال لمحبوب وكأنه يستدرك: ولأ تحب تطلقها يا محبوب؟ ففرت من عينيه دمعتان أخيرتان وقال: اللي تشفوه حضرتك، دي — وديني وما أعبد فاجرة، وعلىًّا يمين الطلاق إن ما كان اللي ليقيوه الصبح ده ابنها، أصلها عايزه تخلف وفاكراني مخالفش. وديني فاجرة.

ووجد المأمور في إجابته نخنخة معناها عدم الرغبة، فعاد يؤكد له سيخص المغربية كلها لزكية، وسيريها فيها نجوم الظهر.

ويبدو أنَّ نجوم الظهر في ذلك الوقت كانت هي ما يشغل بال دميان. كان حاملاً سبَّت الطلبات في طريقه للبحث عن أكلة سمك لبيت أخيه، ولكنه حين وصل إلى القنطرة الحجرية توقف في وسطها تماماً، وتَطَلَّعَ إلى الشمس التي تتوسط السماء. والناس — في العادة — إذا تَطَلَّعوا للشمس لا يحتملون ضوءها الباهر فيُغلقون عيونهم، أمّا دميان فقد كانت لديه تلك القدرة الخارقة، القدرة على التطلع إلى الشمس والنظر فيها دون أن يُغمض عينيه.

ولم تكن تلك القدرة هي السبب في أن بعض أطفال الفلاحين التفوا يتفرجون على دميان في وقته تلك، السبب هو أنه كان يتطلع إلى السماء ثم يفرد كُمَّ جلبابه الأيسر ويحسب عليه بأصابع يده اليمنى ويقول لنفسه: منصورة، إن شاء الله منصورة. أما من هي المنصورة، ولماذا وكيف تنتصر، فذلك أمر لم يكن دميان يقوله حتى لو كان الناس قد سأله عنه.

وبيت المأمور يقع تماماً عبر الترعة، والواقف في نافذة بكلونته الصغيرة المطلة على العزبة كان يستطيع أن يشهد ما يدور فوق القنطرة الحجرية بوضوح، ويشهد دميان في موقفه المضحك ذاك. ولكن الواقف لم يكن واقفاً كان واقفة! كانت السيدة أم صفت زوجة المأمور، سيدة في الأربعين من عمرها بپضاء ممتلئة الساقين والرديفين، ترتدي - رغم مكانة زوجها - نفس المنديل بأووية الذي ترتديه العائقات من نساء الفلاحين ونفس الثوب المشجر الواسع التفصيل. كان أمر دميان يُحيرها من زمن حتى أنها سألت السيدة عفيفة زوجة أخيه عنه مرة، وزاغت هذه من الإجابة. واليوم، لأمر ما، ربما لهذا اللعنة الكثیر الذي دار حول اللقيط والحرام وما يصح وما لا يصح، فقد بلغ حب استطلاعها أشدّه، هي حبيسة بيتها الكبير ليل نهار، لا تزور ولا تُزار إلا في النادر، زيارات تنغض علىها عيشتها، زيارات مُتكلفة عليها فيها أن تجامل زوجات الموظفين وتدعى أمامهن الرقي والتمدين، وأحياناً تكتشف ادعاءاتها فتخرج وتتجول وتتفرد بنفسها وتبكي، ويلها من فكري أفندي زوجها إذا أخطأ! فكري أفندي الذي - على الرغم من مضي أكثر من عشرين عاماً على زواجهما - لا تجرؤ على مناداته بغير يا فكري أفندي، أو بالكثير في لحظات التجلي لا تزيد عن قولها: يا أبو صفت. أحياناً تحن إلى طفولتها الأولى في بيت أبيها الفلاح. أحياناً تتمنى لو كان في استطاعتها أن تفعل مثلاً يفعل نساء الفلاحين وتستحم في الترعة مثلاً، أو تخز بنفسها العيش وتخرج الرغيف مستديراً تام الاستدارة كما كانت تفعل في بيت أبيها.

فكري أفندي من بحري وهي صعيدية، رأها زوجها حين كان يزور قريبة ناظر محظتهم فأعجبته، وفي يوم وعدة ليال تزوجها. ومنذ أن تزوجها وصلتها تكاد تكون مقطوعة بأهلها، حتى أخوها حين يأتي لزيارتهم في التفتيش بلاسته الصعيدية وقُفطانه وحذائه ذي الرقبة الطويلة والأستيك، يُخفي فكري أفندي أمر زيارته. وإذا سأله البعض عنه قال إنه من الرجال الذين يعملون عند والد السيدة، وإنه يأتي ليطمئن أباها عليها. وكل تلك النوازع والهوازف كانت أم صفت لا تستطيع أبداً تحقيقها، كان عليها أن تمثل دور

زوجة المأمور المتکبرة المحترمة على الدوام. نزوة واحدة فقط هي التي كان يباح لها أن تتحققها دون أن يتهمها زوجها بالخطأ، ودون أن ينالها عقاب. دميان! كثيراً ما كان يأتي إلى البيت ليستعير حلة أو مصفاة أو «فروطة»، أو لينقل رسائل أم لنده إليها، وما من مرة جاءها فيها إلا وأبنته لتحدث إليه. وتبليغ أقصى درجات السعادة وهي تتحدث إليه؛ إذ ترك نفسها على سجيتها تماماً معه. تطلب منه أن يقرأ لها الفنجان، ولا يكون طلبها إلا فاتحة الكلام، والغريب أن دميان كان ينطلق لسانه معها فيحدثها مثلاً عن مشاكله مع الفراخ، ومشاكله مع زوجة أخيه، وأحياناً يبكي أمامها بكاءً بكاء الأطفال، ومع هذا تُشاركه البكاء.

كان دميان لا يزال واقفاً في منتصف القنطرة وهي لا تزال واقفة في نافذة balkone، والشيء الخطير الذي يُورقها في تلك الساعة لم يكن هو رغبتها في الحديث التافه الذي كانت تستعذبه مع دميان، ما كان يُورقها هو المشكلة التي طالما أرّقت نساء العزبة: تُرى أدميان فيه للنساء أم لا يصلح لهن؟ كانت هذه المشكلة كلما خطرت لها اعتبرتها عيباً وحراماً لا يصح أن تسمح لنفسها بالخوض فيها، ولكن في تلك الساعة لا تدري – هي نفسها – لماذا تعتبر أن التفكير فيها لم يُعد حراماً أو عيباً. إنها لا تزيد – لا سمح الله – أن تخطئ مع أحد بْلَه دميان، كل ما في الأمر أنها تريد أن تعرف، فهل يُعد هذا حراماً؟

كلما طالت وقوتها في النافذة وطالت وقفة دميان أمام عينيها على القنطرة، كانت

الرغبة تستبد بها، حتى وصلت إلى الدرجة التي لم تعد تستطيع معها صبراً. وهكذا نادت على فاطمة، وهي إحدى البنات الكثيرات اللائي يشتعلن في البيت، ويُحتسنَ من ضمن الأنفار الذين يعملون في الغيط، نادت على فاطمة وطلبت منها أن تذهب وتتأتي بدميان. لم يكن في ذهنها خطة واضحة لما انْتَوْه، ولا ماذا تفعل إذا هرب هو كالعادة من الإجابة على السؤال، هل تستدرجه؟ هل تخده؟ هل تغريه وتمضي في نهاية إغرائه إلى نهاية الشط لترى إن كان سيسْتَجيب؟ لم تكن في ذهنها خطة واحدة ولكنها كانت قد صارت أن تعرف أمر دميان ولو أدى ذلك إلى أن تفعل معه المستحيل.

جاء دميان ضاحكاً مهماً كعادته، السبَّت مُعلق في ذراعه واللعل يكاد يسيل من فمه كلما طوح برأسه أو شرع في الضحك، وقابلته السست أم صفت بترحاب، وأجلسته على الكنبة في حجرة النوم رغمَ عنه؛ إذ كان ينفر من الجلوس في حضرة الناس أشد النفور. ولم تكن هذه أول مرة يدخل فيها دميان حجرة النوم، فدخله فيها أمر لم يكن فيه شبهة أو عيب. جلس دميان على مضض وجلست هي بجواره، وطلبت منه أن يحسب لها نجمها في ذلك اليوم، وشرع دميان يقلب يده ويبلل إصبعيه ويرسم بهما على ظهر يده ويحسب.

ولم تك تمضي بضع دقائق حتى شاهد الناس دميان يندفع جارياً من بيت المأمور والسبَّت لا يزال مُعلقاً في ذراعه، وعبيداً حاول البعض إيقافه لسؤاله عن سبب جريه. ولم يمض جريان دميان من منزل المأمور بسلام، إذ هو شيء غير عادي، سر، وكأنما سر لا حل له، فلا بد من أقوال تتناثر عنه وتفسيرات وشائعات.

وعلى العموم لم يكن هذا هو السر الوحيد الذي بدأ الأقوال تتناثر عنه وتشيع. ما أكثر الأسرار التي ارتفعت عنها أغطيتها وفاحت رائحتها وبدأت ترکم الأنوف. أيام قليلة مضت منذ اليوم الذي اكتشف فيه عبد المطلب اللقيط، ولكنها كانت كافية لأن تقلب الأمور في التفتيش رأساً على عقب، فثمة أم لا بد أن تُوجَد لهذا اللقيط، وطالما هي مجهولة فاميُّ اتهامٍ صحيح، وأميُّ إشاعَةٍ قد تكون هي الحقيقة، والإشاعات كثيرة والألسنة في التفتيش لا تهدأ.

ولم تستدِع المسألة أن ينتظر فكري أفندي المأمور تسعه أشهر كما فعل سيدنا عمر؛ إذ بعد أقل من عشرة أيام قد عثر على الجانية. ولم يعثر عليها هكذا بطريق الصدفة، فلطفنته فضل كبير في اكتشافها. كانت لطع الدودة — رغم كل مجهودات فكري أفندي — قد ازدادت بشكل ينذر بالخطر وأصبحت تهدد بالفقص، ومن ثم باكتساح أرض القطن كلها، والواقع أنه من بين السبعة آلاف نسمة الذين يحيون على أرض التفتيش كان فكري أفندي هو الوحيد الذي يهمه أمر الدودة ونقاوتها. فالمزارعون الفلاحون لا يهمهم القطن في قليل أو كثير. القطن وإن كانوا يزرعونه ويحرثونه وتحتسب عليهم مصاريف جمعه ونقاوته وحتى تطهير المصارف حوله إلا أنه محصول صاحب الأرض ولا شيء غير هذا. فالللاح يأخذ حقيقة الثالث من محصول الأرض التي يزرعها، ولكن الثالث يذهب هباءً، يذهب في تسديد مصاريف القطن ومصاريف المحاصيل الأخرى والسلفة التي اقترضها الللاح في بحر العام ليشتري بها التقاوي ويكتري الأنفار. وحتى إذا بقي للللاح شيء بعد هذا يُقيَّد لحسابه في العام القادم فكيف يهمه أمر القطن إذن؟ الإدراة هي التي تأخذ هذه وهي التي عليها أن تتعهده، والمسألة في رقبة المأمور. فالقطن غالٍ، وهو يُعد المحصول الرئيسي للأبعادية، وإذا أكلته الدودة ضاعت على الخواجة صاحب الأرض آلاف الجنيهات، بل ضاع فكري أفندي نفسه. والسبب الرئيس لرفته من التفتيش الذي كان يعمل فيه قبل عمله هذا كان هو الدودة حين فقست منه والتهمت أوراق القطن وأضاعت المحصول؛ ولذا ففكري أفندي لا يخاف من شيء في الوجود قدر خوفه من اثنين: الدودة وصاحب الأرض.

ولا يتبلور هذا الخوف ويصبح هلغاً إلا في موسم مقاومة الدودة وهي لا تزال لطعاً، هو موسم الامتحان الرهيب لفكري أفندي وأعصابه وعضلاته ومستقبله وكل شيء فيه. وبين شماتة الباشكاب ومقاييسه وخطابات المفتش الذي يكتبها بنفسه وبخطه الماكر الحذر، ويكتب أجزاء منها بالحبر الأحمر ويعلم تحتها بخط، وبين عدم مبالغة الفلاحين ولکاتعة الأنفار والسواقين ولعبهم، يهلك فكري أفندي وهو يصحو من الفجر ويعود من الغيط بعد أذان العشاء، ويدعو الله دواماً أن يسأله معه. وأخوف ما يخافه أن تهبط المقاومة مرة فتنفس اللطع وتكون الكارثة ويرُفَت، ويعيش في ذلك الدل المقيت الذي يُفضل الموت على تعاساته. ففكري أفندي كمعظم زملائه من مامير التفاصي ونظرارها إذا رُفِّتوا من التفاصي لا يستطيعون مغادرته إلا إذا وجدوا عملاً في تفتيش آخر؛ وعلى هذا فحين يُفصل الواحد منهم يظل يرجو صاحب الأرض حتى يُبقي عائلته في بيت التفتيش الذي يسكن فيه، بينما يهيم هو على وجهه في القطر كله سائلاً معارفه وأصحابه باحثاً عن عمل ولو لينقل إليه عائلته ويسكن، والمصيبة الكبرى حين تأتي عائلة الموظف الجديد بعفشهما وصغارها قبل أن يجد الموظف المرفوت عملاً ومن ثم محل إقامة.

من أجل هذا فرُعب فكري أفندي من الدودة أشد ضراوةً من رعبه من الموت، وحرصه على أن يتحلى بالخلق الكريم راجع إلى اعتقاده بوجود رابطة قوية بين أي إثم قد يرتكبه وبين الشياطين السوداء الزاحفة التي يطلقها الله عليه في كل عام مرة، ليُمتحن بها ويعاقب العقاب الأكبر إذا أخطأ، وتنسحب ملابس الملايين من الشياطين إلى أوكرارها إذا ثبتت نظافتها وبراءتها.

كان - لفطر حرصه - يخرج قبل شروق الشمس ويجب أرض القطن كلها مُشمِشًا بأنفه، خائفاً - لا قدر الله - أن تلتقط حواسه رائحة الدودة، فاللطع لا رائحة لها، أما الدودة فأعوذ بالله من رائحتها حين يط قلبه إذا التقطها بأنفه، رائحة غريبة على الغيط وعلى القطن وعلى الصبح المبكر، ملابس الملايين من حيوانات صغيرة متوجهة تلتهم في طريقها كل أخضر ويايس، كأنها رائحة القبر، رائحة الموت حين يلتهم الأحياء ويَتَبَرَّزُهم، رائحة الورق الأخضر الحي وهو يموت، والموت الأسود الزاحف وهو يعيش على الأخضر الحي. كان فكري أفندي يشعر مجرد السيرة ولمجرد وَمُضْلة الخاطر. وآه لو شمها الخواجة صاحب الأرض، الخواجة زغيب الذي لا يضطرب فكري أفندي لشيء قدر اضطرابه حين يعلم أنه قادم. حتى وهو يُصدر الأوامر للكلافة والتَّمَلِّية بِرُشْ ما أمام السراية والطريق وَكَسْه تخرج أوامره راجفةً تفضح اضطرابه. ويقولون: إن التفتيش

كان في أول أمره ملكاً لإحدى البرنسيسات ثم باعه الأميرة لخواجة زغيب الكبير، وصاحب الأرض الحالي ابنه الأكبر، ضخم فحل ذو شعر كثيف أصفر يظهر من صدره وسواعده حين يرتدي القميص والبنطلون والبنطية البيضاء المصنوعة من الفل، ويخرج للمرور. طوال المرور لا يبتسم، وإنما يرقد فوق الحصان الذي لا يركبه أحد سواه، يرقد فوقه كالتمثال الأصم. وفكري أفندي هو الذي يبدو على الركوبة بجواره كالقرد العجوز، طوال الوقت عيناه معلقتان بملامح الخواجة، ولسانه رائح غادٍ يتحدث ويحاول إضحاكه، ويده تشير وتلتفت النظر إلى مصرف تَطَهُّر حديثاً وتعمق، أو إلى مشاية أنسأها هو بجذن ومهارة، يده تشير وتلتفت وتداري العيب أيضاً إذا كان هناك عيب، ولا بد أن يكون هناك عيب، يدعو فكري أفندي الله وملائكته ورسله ألا تقع عليه عين الخواجة، ولكن عينه دائمًا تقع عليه وكأنما خلقت لا ترى إلا العيب. والفاجعة أنه لا يتكلم حين يراه. ليته يتكلم ولكنه يسكت، وما أبشع سكوته في تلك اللحظات.

كان مُتزوجاً من فرنسيّة نادراً ما كانت تأتي معه، فيحاول فكري أفندي إتحافها بسبت صغير من التوت الأحمر الذي تُحبه لعلها تُدلي في حقه بشهادةٍ تُبَيِّض وجهه، ولو بتلك اللغة التي لا يفهمها والتي لا تتحدث إلى الخواجة إلا بها، وكانوا يقولون: إنَّ الخواجة له عشيقه غيرها، وإنَّه لا يُخَلِّف، وإنَّه لولا دينه الكاثوليكي لكان قد طُلِّقها، ربما ليختلف ولدًا يرث هذا الملك كلَّه، ويقولون — وفكري أفندي هو القائل — إنَّ له في سَرَّايتها المطلة على البحر في سيدي بشر بالإسكندرية حُجْرَةٌ سُفْرَةٌ من الذهب الخالص، كراسيها مُطْعَمة بالذهب وأطباقها وملاءقها وشوكها وسِكاكينها ذهب في ذهب، يقولون: إنَّ «زغيب» الكبير اشتراها حين عزم الملك لما كان سلطاناً على العشاء عنده، ويقولون أكثر من هذا، يقولون: إنَّ الخواجة الابن قد تدهورت أحواله بعد وفاة أبيه، وإنَّه باع التفتیش فعلًا للشركة البلجيكية للأراضي، وإنَّه استأجره منها وهو الآن يديره لحسابها، تلك رواية، ورواية أخرى تقول: إنَّ الأحمدي باشا مليونير المديري يُفَكِّر في شرائه، بل ويتفاوض فعلًا مع الخواجة والشركة، ويَتَصَبَّب الناس، فالأحمدي باشا هذا كان — قبل الحرب العالمية الأولى — شيئاً في مضرب أرز، وتأجر فيه وكسب واغتنى لحسابه، وأصبح له شُونٌ وعمارات وألوف مؤلفة من الجنيهات في البنوك، ويفكر الآن في شراء تفتیش البرنسيسة، والأدهى من هذا أنَّهم يقولون: إنَّه على استعداد لدفع ثمنه بالكامل نقداً.

الأقوال عن التفتیش وصاحبِه الخواجة زغيب كثيرة، ولكن المهم أنه لا يزال صاحب الأرض الذي ترتجف أوصال فكري أفندي مجرد احتمال قدومه. الساكت الذي لا يخرجه

عن سكته إلا الخطأ إذا لمحه، حينئذ لا يعرف أباه، يفصل ويرفت ويخصم وأحياناً يضرب، وأه من هذا الساعد الضخم الذي تربى على الفراخ والحمام والديوك والخمرة حين يهبد به الواحد فيطبق به قفص صدره.

كان ازدياد لطع الدودة إذن خطراً ساحقاً يجب تداركه، وازدياد اللطع كان يعني لدى فكري أفندي شيئاً واحداً: أن مقاومتها ليست على ما يرام. ومعنى هذا أن الأنفار يتکاسلون، والمشرفين عليهم من الخولة والسائلين واللماحين يلعبون. وقد تكون هناك أسباب كثيرة لهذا، ولكن فكري أفندي كان يعزوه لسبب واحد ليس هناك من سبب سواه، نهيق ركوبته، هو الذي يكشف قدومه من بعيد و يجعلهم يمثّلون أمامه رواية «وطّي يا ولد، وطّي يا بنت» التي يجيدون تمثيلها تماماً الإجاده. وعلى هذا ألغى فكري أفندي الرّكوبية من مروره، وأصبح يقطع عشرات الكيلومترات سيراً على الأقدام علّه يفاجئ مرءوسيه ويضبطهم مُتبسين بجريمة الإهمال.

وأكثر من مرة تم لفكري ما أراد وفاجأ صفوف الأنفار من الخلف، وفي كل مرة كان يخيب أمله بعض الشيء؛ إذ كان يجد العمل قائماً على قدم وساق ولا إهمال هناك أو تقصير، مرة ضبط عرفة رئيس الترحيلة جالساً تحت الجمизية في الظل يلعب السيجة مع الأسطي محمد العجوز، ومرة ضبط «صالح» الخولي قد أرسل نفرة من الترحيلة لحضور غداءه من العزبة، ولكن — فيما خلا هذا — كان العمل جاريًّا وكأن عرفة ليس جالساً يلعب السيجة، أو «صالح» قد استحل لنفسه أن ينقص العمل مجدهم نفرة!

ولكن فكري أفندي لم ييأس فلا بد أن هناك إهمالاً ما، ولا بد أن يضبط ذلك الإهمال، وفي ذلك اليوم حين عثر على تلك «الظليلة» مقامة بين أعماد التيل المزروعة حول تربيعة القطن، دق قلبه بفراحة الاكتشاف واعتقد أنه — أخيراً — عثر على الإهمال! فلا بد أن تحت تلك الظلليلة أنفاراً يستريحون أو يلعبون. لم يضع جهده إذن عبثاً، ولا راح هباءً ذلك الإرهاق الطويل الذي لاقاه من المرور بلا ركوبة سيراً على الأقدام.

ودون أن يسأل عرفة أو يكلمه، ما كاد يرى الظلليلة حتى أسرع تجاهها ليضبط المُظلللين في حالة تأبُّس.

كانت الظلليلة مصنوعة من جوال قديم مربوط من جهاته الأربع في أربعة أعماد من التيل، وحين فرق فكري أفندي الشجيرات وأطل، فوجئ حين لم يجد أنفاراً كثيرين تحت الظلليلة، في الحقيقة لم يجد إلا نفرًا واحداً، أو على وجه أصح نفرة واحدة، امرأة كانت راقدة على جنبها كالنائمة.

وانقلبت خيبة أمل فكري أفندي إلى شراسة، وقال لعرفة وعيونه تقدح بالشرر: إيه دي؟ نايمه هنا ليه؟ مش ماسكة خط ليه؟
فقال عرفة وهو يبتسم ابتسامة ضايف المأمور أكثر: دي عزيزة يا سعادة البيه.
وبنفس الشراسة قال فكري أفندي: عزيزة إيه؟ عزيزة مين؟
ومرة أخرى قال عرفة وهو يخفض ناحية من ابتسامته ويرفع الأخرى: عزيزة —
اسم الله على مقامك — يا سعادة البيه.

وكانما دق جرس صدئ دقةً واحدةً باهتةً في عقل فكري أفندي. أمكن أن تكون هي الآثمة التي بحث عنها حتى يئس ونفض يده من البحث؟ الخاطر ضعيف وواه، ولكن أوهى منه هو ذلك الخيط المتد من ابتسامة الرئيس، فلو سأله مباشرةً فمن المحتمل أن يخاف ويحرن كما تحرن الحمير إذا رأت حفرة في الطريق، وهو أعلم الناس بهؤلاء الناس حين يُخفون الشيء ويُخافون إظهاره. عليه أن يستعين بالمكر وطول البال وادعاء الجهل عساه يفلح في إخراج كل ما وراء فم الرئيس المضموم المبتسم هذا.
وقال فكري أفندي بنفس لهجة المأمور في حضرة الخطأ: محسوبة دي من ضمن الأنفاس؟

وخفاف الرئيس أن يكذب فيُعاقب على كذبه أضعاف مُعاقبته على مُغالطته فقال: محسوبة يا سعادة البيه، وأنا محسوبك.
- وإزاي تبقى محسوبة نفر وهي نايمه؟
قال الرئيس بمسكته: غلابة عيانة، مش قادرة تمسك الخط يا سعادة البيه المأمور.
ورد فكري أفندي بعنف: يبقى ما تتحسبش يوميتها.
قال الرئيس، وأمره إلى الله: ما تتحسبش يا سعادة البيه، اللي تشووفه، ما تتحسبش.
- لا يا شيخ.

قالها المأمور وقد استعد أن يوجه طعنته، فهو لا يعني ما يستجد، إنه يعني ما فات، يعني الأيام التي قضتها تلك المرأة راقدة لا تعمل واحتسبتُ فيها يوميتها زوراً وبهتاناً. والرئيس كان أيضاً يعرف هذا ويدرك أن العقاب قد يكون فصله بل ومن المحتمل سجنه. ولم يصمد الرجل طويلاً، من تلقاء نفسه قالها. ولم يقلها مباشرةً، بدأ بمقعدة طويلة عن الفقر والناس الغلابة وعمل الطيب وإلقاءه في البحر. ثم انتهى إلى أن عزيزة هي أم اللقيط المقتول، وأنهم حين عرفوا هذا تَسَرُّوا عليها، فهي ولية وكلنا لنا وليانا، وحين أصابتها

الحمد لله رب العالمين رأوا أن يُرقدوها في الغيط تحت ظليلة لكي يستمر أجرها سارياً، فهي غلبانة آخر غلب، وتنفق على زوجها المريض وأولادها الثلاثة منه.

كان المأمور يستمع إليه وعلى وجهه نفس صرامته الأولى، ولكنه — قرب النهاية — بدأ وجهه ينفرج قليلاً قليلاً، ثم بدأت الدهشة ترتسم عليه وتأخذ مكان الصراوة، المذهل في الموضوع أنها كانت متزوجة، فلماذا تقتل ابنها وهي متزوجة؟ قال فكري أفندي هذا للرئيس فأجابه الرجل: حد عارف يا سعادة البيه؟ الدنيا مليانة بلاوي.

— حد عارف إزاي؟! أنت اتجنتن ولا جرى لعقولك حاجة؟ بقى واحدة مجوزة تموت ابنها خطب لزق كده ويبقى اسمه الدنيا مليانة بلاوي، جوزها عايش يا وله؟

— عايش يا سعادة البيه؟

— ومختلفة منه؟

— ومختلفة منه.

— كانت بتقتل ولادها قبل كده؟

— أبداً يا سعادة البيه.

— اشمعنى المرة دي؟

— الله أعلم يا سعادة البيه.

الرئيس بدا وكأنه لم يفكِر أبداً في غرابة المسألة، أو أنه كان قد فكر فيها فلم يأخذها أبداً على أنها مشكلة خطيرة تستوجب إعمال الفكر. كل ما في الأمر أن الأنفار حين رأجواه أن يصنع معروفاً ويجعل عزيزة ترقد تحت الظلية في أثناء العمل، فعل هذا عن طيب خاطر، فهو يعرفها ويعرف زوجها وأباهما، وكل ما كان يقلقه أن يكشف المأمور — أو أحد من رجال الإدارة — ما يحدث، ذلك هو كل ما كان يشغلة. أما الآن فمشغوليته الكبرى هو التحايل على المأمور حتى يتجاوز عن هذه الغلطة. وهكذا عاد يرجوه ويلج في الرجاء أن يمسحها المأمور في ذقنه، وأنا وقعت من السما يا سعادة البيه وأنت استلقيتني، إلى آخر هذه الأقاويل التي يجيد الرئيس إخراجها ونقطها في كل مأزق.

ولكن المأمور كان في شغل شاغل عنه، فأمله وإن كان قد خاب قليلاً؛ إذ تبين أن ليس في المسألة جريمة أو زانية ولا بنت بكر ضحك عليها شاب أرعن وأغواها، أمله وإن كان قد خاب إلا أن مشكلة المرأة بدأت تستحوذ عليه بطريقة أخرى، لماذا تقتل امرأة متزوجة مثل تلك الملتفة في خرقها السوداء ابنها؟

الرئيس لا يبدو عليه أنه يعرف شيئاً ويخفيه، والحقيقة لا يمكن أن يعرفها إلا الله — سبحانه وتعالى — وعزيزة.

قال فكري أفندي للرئيس: سألتوها عملت كده ليه؟

قال الرئيس: والله ما عرفنا نطلع منها حاجة، وأهي عند سعادتك گلمها. وبغير أن يقول الرئيس هذا كان في نية فكري أفندي الأكيدة أن يتحرك إلى الظليلة ويتفحص هذه المرأة الذائبة. كانت راقدة في بطن قناعة صغيرة من القنوات التي نروي منها الترابيع، راقدة على جنبها وقد ضمت ركبتيها إلى بطنها وأمسكت رأسها بکوعيها مُتکورة على نفسها كالجنين في بطن أمها. ولم يكن يبدو عليها أنها تختلف — قليلاً أو كثيراً — عن بقية النساء في جيش الترحيلة؛ إذ كان واضحاً أنها سمراء غامقة السمرة، أو بالأحرى محروقة الجلد، حرقته الشمس الكاوية التي تنصبُ عليه أشعتها طوال اليوم بلا حجاب أو حاجز. غير أن فكري أفندي لم يفته أن يلاحظ أن ثانية ركبتها فاتحة، وأن ثوبها الأسود المشقوق في أكثر من موضع يُظهر — أحياناً — بقعاً بيضاء كدواشر النور حين ترتسم على الأرض من ثقوب السقف.

حدق فيها فكري أفندي طويلاً معتقداً أنها لا بُدّ حين تشعر بوجوده فوق رأسها سوف تجلس مثلاً أو تعتدل، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، بقيت نائمة لا يتحرك لها طرف أو جفن، وحينئذ قال لها فكري أفندي: اتعدي يا بت.

قال لها هذا وهو يلکرها لکزة هينة ببوز حدائه.

ولم ترد أو تعتدل، فقد حولت إليه عينيها حتى واجهتها. وليتها لم تفعل، كان وجهها محتناً شديد الاحتقان حتى استحال لونه إلى سواد. وكان في عينيها كتل دم، دم حقيقي لا يحول بينه وبين أن يسيل إلا ستار لامع رقيق، وكانت أسنانها تصطك وجسدها كله يرتعش ارتعاشاً تکاد العين لا تلحظه.

وبحركة تلقائية غريبة وضع فكري أفندي ظهر يده المغطى بالشعر والعرق على جبينها، وسحبتها في الحال — وكأنما أصيي بلسعة — وهو يقول: دي عندها حُمّي يا وله. فأجاب الرئيس: بقالها يومين، غلبة، زي ما سعادتك شايف.

— شايف إيه؟ دي تموت كده.

ووجد الرئيس أن الوقت قد حان فما لبث أن أضاف: وعلى العموم إذا كنت سعادتك عايز تخصم يوميتها والله اللي تشوفه.

وكان التوقيت مضبوطاً فعلاً، فقد هز فكري أفندي رأسه هزات كثيرة ذات اليمين وذات اليسار وهو يردد: لا حول ولا قوة إلا بالله. وكان معنى هذا أنه على الأقل قد قبل أن يتغاضى عن رقدة عزيزة، وأن يحتسب يوميتها.

ظل فكري أفندي واقفاً في مكانه طويلاً كمن لا يدرى ماذا يفعل، ينظر إلى المرأة المتكورة في سوادها على الأرض الخشنة ذات الطوب والقلقلي، ويعود ينظر إلى الأنفار، ثم يهيم في سكون الغيط المضيء المقين.

وفجأة صرخت المرأة الراقدة كما يُصقرّ القطار على حين بقعة، ومدّت يدها في وحشية واقتلت عودين من أعواد التيل ثم انهالت عليهما عضًا بأسنانها وقرضاً، وهي تقول مُولولة: جدر البطاطا كان السبب يا ضنايا.

وتراجع فكري أفندي إلى الوراء مذعوراً، وبعد ما التقط الرئيس أنفاسه قال للمأمور: أصلها لا مؤاخذة بتخريف يا سعادة البيه، الحُمّى ملهمة نافوخها، خد من ده كتير، طول الليل والنهر على كده، دي بتقول كلام، بابنها شافت كتير الولية دي، ربنا يكون في عنها.

حتى وهي في تمام صحتها لم تكن عزيزة بارعة الجمال، ولم تكن حتى جميلة. كانت طويلة رفيعة ذات أنف طويل رفيع ورُقعة سوداء تُعصب رأسها على الدوام، ووجه أصفر وعيينَ واسعتينَ على إدحاماً نقطة بيضاء من رمد قديم. ولكنها لم تكن هكذا طيلة عمرها. كانت ذات يوم بنتاً حلوة ذات أهداب وشعر ونهود، تضم الكحل وتطقطق بالشيشب إذا سارت وحاذت الشباب. كانت هكذا إلى أن زوجوها إلى عبد الله. وأيضاً كان لها ليلة حنة وفرح ودخلة ونقطوط وماء ساخن حملته لها أم عبد الله في الصباحية، صباحية لم تستمر إلا صباحاً واحداً، والصباح الذي يليه كانت في الغيط. لم يكن لزوجها أرض يزرعها وحتى لم يكن له أرض يستأجرها. كان يعمل باليومية، يوم فيه وعشرة ما فيش، وعماده كله على مواسم الترحيلة حين يقبض من الحاج عبد الرحيم المقاول، وتحمله عربات النقل إلى تفاصيش كثيرة من تفاصيش مصر في الدقهلية والشرقية وحتى إلى الفيوم وبني سويف كانت تحمله العربات. غير أنه من يوم أن تزوج عزيزة لم تعد العربات تحمله وحده، أصبحت تحمل معه عزيزة. وبدلاليومية الواحدة أصبح يقبض يوميتين. وسنين طويلة حافلة قضها هو وعزيزة في الغربة وببلاد الناس رأيا فيها الكثير وجمعوا القليل. ولكنها عاشا وخلفاً عبد الله الصغير ونهاية وزبيدة، عاشا يقبضان القبضية من الحاج عبد الرحيم في موسم القطن ويعيشون جميعاً عليها بقية العام. يعيشون غصباً ومحايلة وبالجبنية أحياناً وبالعيش الحاف والملح في أحياناً، ولكنهم يعيشون والسلام. إلى أن حدث ما كان لا بدّ أن يحدث، مرض الزوج، بدأ الأمر بمغص في الجانب الشمالي ثم انتقل إلى اليمين ثم سرى في البطن كله، ثم بدأ البطن نفسه يتتفتح بالماء. وقالوا لعبد الله اكوا بالنار فكوى بالنار، وقالوا

له بلهارسيا وطحال فانهَّت الباقيَة من حيَّله، وإنَّ المستشفى في المركز تَنَدَّكُ في ذراعه وتُفرغ سُمَّها الهاري في جسده وتجعله يهُوي، وتجعله يدوخ أحياً ويرُشون على وجهه الماء. ويوم فيه ويوم ما فيش! وكل يوم يذهب إلى المستشفى لا بدَّ أن يصحو من الفجر، ويكون هناك في السابعة وإلا ضاع دوره، ويعود في العصر أو في المغرب ماسِكاً بردعة حمار من حمير بلياته مستنداً إليها، أو ماشياً عشر خطوات ومستريحاً عشراً.

ومع هذا كله فقد ظل عبد الله يذبل ويذبل وكأن جسده يموت بالتدريج، ولا قوة في الأرض تستطيع أن تمنعه أو توقفه، حتى أقعده داء المية. والواقع أن الداء لم يكن هو الذي أقعده، الحاج عبد الرحيم هو الذي هزمه حقاً وطرده من فوق عربة النقل، ولم تفلح الوساطات أو الشفاعات لديه؛ إذ ماذا يفعل به واللوسيَّة بالتأكيد لن تقبل أن تتحسب نفراً؟ وبكت عزيزة ونزلت هي الأخرى من العربية. وقال لها الناس: روحِي أنت فابت وقالت: نُفُوتُها السنة دي يمكن السنة الجاية نطلع سوا. غضب عبد الله وقال له: روحِي أنت، ولكنها أبت وقالت: وأسييك على مين؟

وطلت عزيزة بجواره. تخbiz للجيران أحياً، وتلم روث البهائم وتبيعه، وتسرح بالحطب إلى المركز وتعود بقرش أو بقرشين، وفي كل أسبوع أو عشرة أيام تحظى ببومية. وعبد الله راقد في صحن دارهم الواطئة، بطنه عال، وصوته واهن، ويده المعروقة الصفراء تُرُبَّتُ على عبد الله الصغير في ناحية وعلى ناهية وأختها في الناحية الأخرى، ويهس أنه فعلَّ مريض وأنه عاجز وأنه لولا عزيزة لما توا جوغاً، ومع هذا لا يطاوعه ضميره فيئن وتتقبض يداه وينظر إلى السقف المهب المنهار بعينين قد كَبَّرَهما الداء ووَسَّعَهما يجعلهما تبرزان وتلمعن لمعانًا غريباً ويقول: كده يا رب؟! يرضيك مراتي توكلنا؟

كان يستكثُر هذا على نفسه، بل عزيزة هي الأخرى كانت تتَّأَلَّ، وهي تراه راقداً أصفر منفوخاً عاجزاً، ولكن الزمن، الزمن القوي القادر ما ليث أن تكفل بكل شيء، فلم يعد عبد الله يستكثُر هذا على نفسه ولا على عزيزة، ولم تعد عزيزة تنتظر إلى مرض عبد الله على أنه أمر غريب أو نشاز. أصبح كل شيء طبيعيًّا. هي تخرج من الصباح ولا تعود إلا بشيء، وهو يحرس الدار التي لا شيء فيها ويرعى الأولاد، ويتحين الفرصة ليجرع الماء الذي تُحرِّمه عليه عزيزة حين تكون موجودة، فقد قالوا لها إن علاجه في منع الماء عنه.

أصبح الأمر طبيعيًّا إلى الدرجة التي قال لها عبد الله ذات يوم بدلع المريض حين يهدِه المرض ويجعله عصبيًّا كالأطفال، كثير المطالب كالولد المُدلَّ، قال لها: نفسي في البطاطا يا عزيزة.

وطلبات المريض مُجابة ومُقدّسة، وكأن أهله يرون فيها الشفاء، أو وداع الدنيا.

وقالت له عزيزة: يا حبيبي، من عيني دي ومن عيني دي.

ولم تكن في البلد بطاطا، كانت هناك زرعة بطاطا في فدان قمرین ولكنها جُمعت من زمن وبيعت وأرضها تُهيا للأذرة، ولكن طلب عبد الله عزيز وعليها أن تحاول، وهي تعرف أن أهل البلد — بعد ما جُمعت البطاطا — قد أشبعوا أرضها حفراً وتتفقّيّاً بحثاً عن جذر بطاطا يكون قد أخطأته فأس جامعها، وأن لم يعُد في فدان قمرین أي أمل في العثور على عُقلة إصبع، ولكن طلب عبد الله عزيز وغالٍ وعليها أن تفعل المستحيل.

وحملت عزيزة فأس عبد الله التي صدّئت من قلّة ما تُستعمل، وذهبت إلى فدان قمرین، وقصدت أقل الأمكنة حفراً وأخذت تعمل، وحفرت إلى عمق مترين ولم تجد، وانتقلت إلى مكان آخر أعملت فيه الفأس وأيضاً لم تجد، كانت تجد كل شيء، جذور الزرع القديم وشقافة ورملًا وأحياناً قطع حديد ولكنها لا تجد أبداً جذور بطاطا.

وبينما هي تعمل وتلهث وقد شمرت ثوبها الأسود وربطته حول وسطها كما يفعل الرجال، رأت خيالاً ثم سمعت صوتاً يقول: بتعمل إيه يا بت؟

وحتى قبل أن ترفع رأسها كانت قد عرفت أن صاحب الصوت هو محمد بن قمرین. ورفعت عزيزة رأسها وعدلت ظهرها ومسحت عرقها وقالت له الحكاية، ورجمته أن يسمح لها بمعاودة البحث، وقال محمد كلاماً كثيراً عن الحفر وكيف يُضعف الأرض ويُخفي طميها ويبُور المحصول. غير أنها عادت ترجوه وتُلتحف في الرجاء حتى بكت، وبيدو أنها صعبت على محمد، فلم يوافق على معاودة الحفر فقط، ولكنه كان شهماً فقال لها: طب عنك إنتي.

وخلع جلبابه وأخذ منها الفأس، وتلتفت حوله بعين خبيرة ثم انتقى مكاناً ما لبث أن راح ينهال بالفأس عليه، وعزيزه قد جلست غير بعيد ترقبه وتقارن بين حفرها وحفره، والفأس في يدها هي أقوى منها وأنقل والفأس في يده هو، هو القاپض عليها، هو المتحكم فيها، هو الرجل، هو الرجل الذي يذكرها بعد الله حين كان يعمل، وتصبح له العضلات البارزة في بطن ساقه، وتتکور تلك العضلات الأخرى في بطن ذراعه، ويلهث. ليس لهث المتعب، ولكنه لهث الرجل حين يعمل، لهث مننظم قوي وقور.

كان محمد بن قمرین في العشرين، وكانوا يتکلّمون عن زواجه من ابنة قريبة لهم، وكان معروفاً بشراسته حتى إنه لم يكن يتورع عن سب النساء، ولكنه كان من الغيظ إلى البيت ومن البيت إلى الغيظ، لا يعرف قهوة ولا غرزة ولا أي كلام فارغ مما يعرفه شبان

القرية صياعها. حمداً لله إذن أنه عاملها برقق، حمداً لله أنه لم يشتمها، وكترا خيره أنه طوع بأن يبحث لها عن جدر البطاطا.

خطب محمد خبطتين متوايلتين ثم قال لها وهو يبتسم وصوته يضحك، وربما لأول مرة كانت تراه يبتسم أو يضحك: خدي يا ستي.

وناولها جدر بطاطا صغيراً فرحت به كاللُّقية، وكادت تهم بالوقوف والذهاب جريأاً إلى عبد الله بما حصلت عليه. ولكنه قال لها: استني، وبعد خبطات قليلة أخرى ناولها حبة بطاطا ذهلت لضخامتها، فلم تكن جذراً، كانت حبة حقيقة في حجم قبضة اليد أو تزيد. لفَتْ عزيزة البطاطا في طرف شالها ولسانها يردد كل ما تعرفه من كلمات الشكر وتعبيراته ودعواته، تتوجه بها إلى السماء تطلب له طول العمر ونجاح المقادير. واستدارت ملهوفة فرحانة لكي تأخذ طريقها إلى البلد، فالشمس كانت قد أوشكت على الغروب والدنيا تَمَسَّتْ وإلى أن تصل البلدة يكون المساء قد حل.

ولكنها في لفتها وفرحتها لم تفطن إلى الحفرة التي كانت وراءها وعلى هذا فقد فوجئت بنفسها تسقط مرة واحدة نصفها في الحفرة ونصفها على الأرض.

والواقع أنها لم تتبين تماماً ما حدث بعد هذا، الأمور حدثت بطريقة أسرع من أن تدركها أو تتفاها. ما كادت تحاول أن تقوم حتى كان محمد إلى جوارها في الحفرة يساعدها. مرة واحدة وجدت نفسها في حضنه وقد أطبق عليها بذراعيه ليرفعها. وهي وإن كانت قد ارتعشت حين أحسست بنفسها في حضن رجل غريب، إلا أن الرجل الغريب لم يكن سوى محمد الكِشر الذي لا يتسرّب إليه الشك. ولكن الشك بدأ يتسرّب فعلاً إليها حين لم يرفعها محمد ولم يدعها ترفع نفسها، وما كاد الشك يتسرّب إليها حتى كان قد أصبح حقيقة، رُوعتْ أولاً ولكنها استجمعت نفسها ودفعته وناظلت، ولكنها كانت ترى أن نصالها لا فائدة منه. بل ليست تدري على وجه الدقة سر هذا الانهيار الذي أصابها حين أصبحت في حضنه. تريد أن تقاوم ولا تستطيع. تستميت، ولكنها يائسة. تصرخ فيتجمع الناس وتصبح فضيحة ومُضيحة في الأفواه؟ تسك؟ تَعَضُّه؟ حتى ملابسها التي لا تحكم على غيرها مزقها، كل ما حدث أنها ظلت تَئن مذهولة مرعوبة حتى قام. وشتمته، ولكن ماذا تفيد الشتائم؟ لم يقل هو حرف، فقد ظل ينظر هنا وهناك. الغيط خال تماماً والبهائم والناس تروح من بعيد. وعاد إليها من جديد. وهذه المرة كان يمكن أن تقوم وتجري وتضربه بالفأس إن اضطررتْ، ولكنها لم تفعل. سكتت وظلت تَئن أنين المظلوم الذي لا يُخلي نفسه من مسؤولية ظلمه.

وفرح عبد الله بالبطاطا وأكل منها الأولاد، وحتى هي نابتها قطعة، وفي الأيام القليلة التالية كانت تراودها ذكرى ما حدث، وتشيح بوجهها وتلعن نفسها وابن قمرین وجذر البطاطا عبد الله. ولكنها تَحَمَّدَ الله — في سرها — أن أحداً لم يرها، وإن ابن قمرین تقول عليها فلن يصدقه أحد، ولكنها بعد أيام كانت قد نسيت كل شيء عما حدث، وأي شيء يُنْسِي قدر البحث الدائب عن لقمة العيش. الذين لا يَنْسَوْنَ هم الذين لديهم الوقت لكي يتذكروا ويسرحوا مع الذكرى. وعزيزَة تبدأ اليوم مسحورة تجري هنا وهناك لتحصل على خبز لذلك اليوم، وتعود منهوكة مهدوّة ما تكاد تتضع رأسها على المُلْخَدَة القش حتى يدهمها تعب أشد في مفعوله من النوم، غبوبة طويلة يوقدتها منها ذلك الهاتف الخفي الذي يوقدتها كل فجر، هاتف اللقمة والدار الفارغة والأفواه المفتوحة الجائعة.

حتى المرض الشهري حين انقطع عنها لم تُعِرِه اهتماماً يُذَكِّرُ، فكثيراً ما كان ينقطع وينتظم ويغيب شهراً ثم يعود. لم تفطن إلا حين بدأَتْ تُحْسِن بالحمل. ورغم كل علاماته وإشاراته فلم تُصدِّقْ أنه — حقيقة — حمل، أَمِنَّ من مرة واحدة أو مرتين يحدث هذا، ومن أجل جذر بطاطا؟!

أقطع ما في الأمر كان عبد الله، عبد الله لم يقربها من عمر ابنتها زبيدة، والناس تعلم هذا، فماذا يقول؟ وماذا يقول الناس؟ هو لن يقتلها فهو عاجز عن قتلها، والناس لن يقتلوها فهم لن يستطيعوا قتلها، ولكن القتل عندها أهون من أن يعرف عبد الله ويعرف الناس.

كان لا بدًّ — إذن — من التخلص من هذا الشر المستطير الذي يرقد في مكان ما من بطنها، ويكبر كل يوم ويملؤها ولن يهدأ حتى يخمد أنفاسها. وجَرَّبَتْ عزيزة كل شيء، أعاد الملوخية، وإدارة الرَّحْمِي فوق بطنها والقفز من السطح جَرَّبَته. ولكنه كان ابن حرام فعلاً فلم يُزْحِزْه كل هذا ولم يُسْقطه، بل مضى يكبر كل يوم، بل بدأ يلعب، ولا يحول بينه وبين أن يفصحها على الملاٌ إلا هذا الحزام القوي السميك الذي تتحزم به في غل وجبروت، وكأنها تريد أن تخنقه في بطنها وتقتله قبل أن يقتلها.

كان الحزام يخفي بطنها إلى حد كبير، وكانت تترك عب جلبابها الأسود الواسع مُهَدَّأً فوق الحزام الخارجي، وحين تمشي وحين تقف وحين تنام وحين تتحدث كانت تراعي دائمًا أن تفعل هذا بطريقة لا تدع مجالاً للشك فيها، وكان هذا يؤلّها أشد الألم، وكانت تتحمل أشد الشدائِد حتى دون أن يكون لها الحق في الشكوى، والشكوى أحياناً تذهب بالألم. وكانت تحتمل وتكلّم، ويفيض بها الحال في ليالٍ وتتنفس بحرية وترفع يديها

وأنظارها وروحها إلى السماء وتطلب من الله أن ينقذها، إن لم يكن لأجل خاطرها فلأجل خاطر عبد الله الرائق العاجز.

كل ليلة وكل دقيقة تدعوا ولا دعاء من دعواتها يُستجاب، بل حدث ما هو أَمْرٌ، جاء الموسم ونادي المنادي في البلد. النفر بسبعة يا أهالي والقبض على خمستاشر يوم والغائب يعلم الحاضر.

وكان لا بُدًّ لها في هذا العام أن تذهب وإلا هلكوا، فالعام الماضي الذي لم تذهب فيه رأوا خلاله نجوم الظهر وعاشوا على الطُّوى. لا بُدًّ لها من الذهاب، قال لها عبد الله هذا، وقال لها الناس. وقالت هي هذه المرة: من غير كلام أنا رايحة. وأخذت زَوَّادتها، وشدَّت على يد عبد الله وهي تُودّعه، وقبَّلت الصغير واحْتَضَنته، وبَكَتْ وبَكُوا هم الآخرون وهم يصرون على الذهاب معها حتى «الحلزونة».

وامتلأت العربية، وزمر السائق وانطلقت، وانطلقت معها عقائر الأنفار تغنى للمحبوب وللغربة وتعتب على الزمان. والغريب أن عزيزة بعد حشرجة بكاء أول الأمر، ثم صمت، بدأت تُغْنِي معهم، وشيئاً فشيئاً بدأت تُحِسُّ أنها تغادر أرض الفقر والعلل وجذور البطاطا وأنها تدخل في الحياة المضمونة الجديدة.

واشتغلت عزيزة ونسَيَتْ كل شيء في غمرة الشغل، نفسها وعبد الله والبلد، ولكنها أحياناً كانت تذكر بطنها وما فيه وما حوله من أحزمة. وأحياناً تنسى، والنسيان والذكرى لا تكونان سوى جزء ضئيل من الأشياء التي تتعاقب عليها، تعاقب الشمس حين تشرق وظهورها محنى فوق العيدان، وحين تغيب وهي تدفع بالللمحة الحاف في فمهما، كالنهار بما فيه من قيظ وعرق وعصي رفيعة يصل ضربها إلى العظم، والليل بما فيه من غيبوبة واسترخاء وأحلام تبقى دائِمًا بلا تفسير.

غير أنها ذات يوم بعد القِيَالَة، اضطُرْتْ أن تذكر كل شيء وتعي بكل شيء، فقد لمع شيء في عقلها كما يلمع النصل الغادر قبل أن يستقر في جسد الضحية. فقد أحسست ببواشر الطلق اللعين تنقر في سلسلة ظهرها ثم تلتف حول بطنها لتعتصرها. أحسست أن هذا الشيء اللعين الذي تحمله ينقر جدار بطنها مطالباً بالخروج، ينقر في إصرار وتصميم نقرات مستمرة، كل تالية أعلى من الأولى وأوجع، وكأنه يهم بهدم الجدار.

لم يكن أحد من بلداتها أنفاري الترحيلة قد فطن إليها. وكيف يفطنون وهم لا يرى بعضهم البعض إلا مُنحِنِين، أو مُبَعْثِرِين في أكواام نائمة مكدودة، أو سارحين والنوم لا يزال يُغلق عيونهم، ومرُوحين والتعب وتراب الغيط يُعميان العيون؟ كل واحد في حالة ولِكْلِ بلواه، ولا فرصة حتى للموجوع ليقول: آه.

ولكنهم غداً سيعرفون. والمصيبة ليست في هذا، المصيبة حين تعود معهم إلى البلد وعبد الله، تعود أمّا لطفل ليس هو أباًه. أليس الموت أهون؟

تكاثرت الطلقات، وما كاد الرئيس يُصْفِر وينتهي اليوم حتى كان وجهها في شحوب الموتى. بل حتى لم تلاحظ جارتها شحوبها. وعزيزة ساكتة صامدة تتحمل ولا تستغيث، خرجت من الأرض واغتسلت كما اغتسلوا، وسارت على المشاية كما ساروا، تتوقف هنيهة إذا جاءت الطلقة ثم تسرع حين تسكّت. وحتى العشاء تَعَشَّت وكل ما كانت تريده أن تُواكيها الفرصة لِفَكِ الحِزام الذي يَخْنُق بطنها؛ إذ حين كان بطنها يَتَقَيَّضُ داخل الحزام كانت تُحس بآلام مُرْوِعة، آلام لا يحتملها إنس ولا حجر ولا جانٌ. هي نفسها لم تكن تعرف بأي جبروت غير بشري تحتمل دون أن يبدو عليها أقل لحة أو بادرة، وكل هذا من أجل جذر بطاطاً. لا! كل هذا لأنها لم تقاوم لحظة، تلك اللحظة التي صاحبتها سبعة شهور تطاردها كاللعنة المقيمة. لماذا تَرَكْتُه يفعل بها ما فعل؟ تقول لنفسها إنها لم تَرض. ولكنها ترد وتقول: ولكنني لم أرض. تضرب رأسها في الحائط وتقول: كُنْتِ عارفة إنه حرام وعيّب. لم تقاوميه كما يجب. لم تصرخي وقت الفضيحة.وها قد أتتكم الفضيحة الكبرى. انضضي — إذن — يا عزيزة وابشعي فضيحة، فلو لا أنك ضَعْفَتْ لحظة لما حدث ما حدث. لحظة ضعف واحدة منها هي التي قاومت طبيعتها حين رقد عبد الله رقدته التي لم يقم منها. قاومت الليالي التي كانت تريده فيها ولا تستطيع، أيكون هذا هو السبب في أنها ضعفت تلك اللحظة؟ اللحظة التي أخذها فيها محمد بن قمرین؟

كان عليها أن تنتظر حتى تنام الترحيلة ثم تبتعد عنهم قدر ما تستطيع وتلذ، ولكن الولادة ليست بالإرادة. بدأت العواصف المتلاحقة تجتاح بطنها ولم يلبث القرن أن طش، وجيرانها في الفراش والعزّال، وجيران جيرانها ومعظم الناس لا يزالون مستيقظين. جارتها تسأّلها ما بها وملابسها غرقى مبتلة وفي بطنها نار فتقول: رأسي. وكان لا بُدَّ مما ليس منه بُدُّ. فما لم تلحق نفسها فستلذ وهي في مكانها تحت سمع الترحيلة وبصرهم أجمعين.

وقدّامت مُنْحنية، ولم يأبه أحد لقيامتها فقد حسبها تريده أن تفعل مثلاً يفعل الناس. وما كادت تبتعد عنهم بأمتار وتغيّب قليلاً في اللام حتى بدأ الطلق يَتَنَبَّها ويُفرِّدها. وهذا فلم تنس البيضة التي استلّفتها، ولا قطعة الصفاصاف الجافة التي احترق نصفها، كانت كُلُّ منها في يد.

وطلت تمشي حتى وصلت إلى حافة الخليج، وطلت تمشي على الحافة حتى لم تعد قادرة على المشي. وكل هذا ولم تكن قد ابعدت عن الترحيلة كثيراً، كانوا على مرمى السمع منها تصلها أصواتهم، ولو لا الظلام الرايبس بينها وبينهم لعرفوها وعرفوا ما هي مقدمة عليه.

ووضعت قطعة الصَّفَصَافِ الجَافَّةَ بين أسنانها، وجلست القُرْفُصاءَ، وكلما عوى الطلق المتلاحق في جنباتها انغرستُ أسنانها لآخرها في الخشب الجاف، وتَقَبَّضْتُ يدها تعصر طين الخليج حتى تczdf به وقد فقد ماءه وجف وتجمد. وأيضاً لم تنفس ما يجب عليها عمله، فما كاد رأس الجنين يطحل حتى كسرت البيضة ومضت تُوزَّع محتوياتها الزَّلْفَةَ عليها تُفْلِحُ في زفلطة الرأس وخروجه. وانساب الجنين في النهاية.

انساب مرة واحدة وكأنما انساب روحها معه، فقد داحت قليلاً ثم غابت عن الوعي بُرْهَةً وجِيزةً فقط، ولكنها حين عادت إلى وعيها سمعت، حقيقةً سمعت زقرقة حافته. زقرقة الجنين ما في ذلك شك. ومرةً واحدةً خَرَجَتْ منه صرخة، صرخة خُيل إليها أنها ملأت الدنيا كلها وسمعها الناس أجمعون.

وهي لم تكن قد جَهَّزْتْ نفسها لهذا الوقت. كل ما كان يهمها أن تخلص من هذا الورم الخبيث الذي أضناها طويلاً، ولترتكبُه بعد هذا أو ليحدث له ما يحدث.وها هو ذا الورم بعد ما تخلصت منه يصرخ ويُهُدِّد بالفضيحة الكبرى. ابن سبعة شهور، ولكنها هي ويصرخ. ومدت يدَا مرتجفة غير مستقرة، وطلت تعبث بالكتلة البشرية الحية حتى وصلت إلى فمها، وانزلقت إصبعها الصغيرة رغمَ أنها ووصل في الفم، فم حقيقي لرضيع ليس فيه أسنان، فم يكاد يحس بإصبعها حتى بدأ يتحرك تحركات معينة ويرضّعه. رضع الطفل إصبعها للحظة، لحظة خاطفة ولكنها كهربتها، من هذا الجر لحمي الصغير انساب إلى إصبعها، ثم إلى ذراعها ثم إلى كيانها كله إحساس غريب عارم. وكالوهج الخاطف أدركت أنها رغم كل شيء، ورغم ما لاقته من مصائب، فهذا الرضيع ابنها وهي أمها. وتركت يدها فمه وراحت تعبث وتحاول أن تُقْرِبَ الرضيع منها.

لم تكن هي التي تتصرف؛ إذ لم تكن هي التي تفكّر. هي – في الواقع – كانت لا تفكّر بالمرة، كانت وكأنما ذراعها هي التي تتحرك وتتجذب الرضيع إليها من تلقاء نفسها. ولكن كل هذا لم يستمر سوى لحظة، بعدها صرخ الطفل، وارتدى يدها بسرعة إلى فمه تَقَفَّلَهُ، وحاولتِ الفتحة الصغيرة أن تتملص من الأصابع الموضوعة فوقها فازداد ضغط الأصابع. وخافت أن ترفع يدها فيعود إلى الصراخ، وهكذا بقيت يدها.

ومرة واحدة أفاقت عزيزة لنفسها فوجدت يدها ميّة على فم الطفل ووجدت الطفل ساكتاً ساكناً لا حراك به. وهتفت في صوت مبحوح خائف مرتعش: يا لهو! ومكثت قليلاً في مكانها، جامدة لا تتحرك، غير أنها أخيراً تحركت خائفة مرتعشة، كل همها أن تبتعد، تحركت زاحفةً على بطنها إلى فراش قش الأرض الذي تنام عليه. كان جيرانها والترحيلة قد ناموا، ولم يشهد قالب الطوب الأحمر الذي تضع رأسها عليه دموعاً، ولم تسمع أم حسن جارتها في الرقاد أنييناً، وأيضاً لم تنم، فطوال الليل كانت تحس وكأن قطار الدلتا ظل يدفعها إلى تصادم المحطة، وأنه يدفعها بين حديده وحديد التصادم.

و قبل شروق الشمس، وبجبروت مذهل، كانت تمسك خطأً مع الأنفار، وظهرها محنى، وعيناها زائغتان تبحثان عن اللطع.

وسار كل شيء كما أرادت تماماً، حتى حين جاء المأمور وببدأ قلبها يدق وعرقها ينبت، تمالكت نفسها بقوة ومررت من أمامه وفاقت عليه دون أن يستوقفها. وحين جاء البوليس لم يشك أحد فيها، بل حتى لم تستدع للمثول بين يديه وكيل النيابة. كل ما في الأمر أنها قبيل الغروب وهي عائنة مع الأنفار من الغيط، عن لها أن تغيّر طريقها، وبدلاً من الذهاب إلى مقر مكان الترحيلة عن طريق الترعة، تذهب عن طريق الخليج. لماذا؟ لم تكن تدرى. بدأت تسير فعلاً في اتجاه الخليج، ولكنها اقشعرت فجأة وعادت مسرعة لتذهب عن طريق الترعة.

وتعشّت مع الأنفار، والغريب أنها وجدت شهيتها مُنفتحة على غير العادة، وأوّلت إلى فراشها القش ومخدّتها الحجرية وكل ما يشغلها هو فرحة الإفلات، وكأن تلك الفرحة قد تولت تخدير جسمها وكتب كل آلامها.

واستيقظت مع الأنفار في الفجر، ومع شعاعات الشمس الأولى بدا لها أن الهم قد انزاح عن كاهلها إلى الأبد، وأنها أصبحت طليقة حرة، تخلّصت – دون أن يشمت فيها أحد أو يعيرها أحد – من الورم الخبيث الذي كاد يُوردها حتفها، بدا لها الصباح جميلاً جدّاً، وبدا لها أن كل شيء سوف يسير كما أرادت تماماً وكأن الله معها.

وفي طريقها إلى الغيط حرجت – لأول مرة – عن العزلة المقيمة التي كانت قد فرضتها على نفسها، وقد أصبحت متنشية بإحساسها أن لم يُعد فيها شيء يمنعها من أن تكون مثل سائر الناس، تختالطمهم ويختالطونها وتحادثهم ويحضّكون معها.

لَوْيَة بُوزِّها انفَكَتْ، ورَأْسَها غَسَلَتْهُ وَسَرَّحَتْ شَعْرَها رِبَما لِلْمَرَةِ الْأُولَى مِنْذِ شَهْرٍ،
وَبَدَتْ عَزِيزَة مَرَحَّة مُنْطَلِقَةً عَلَى غَيْرِ عَادِتِهَا حَتَّى إِنَّهَا شَارِكَتِ الْأَنْفَارَ فِي غَنَائِمِهِمْ فِي أَثْنَاءِ
الْعَمَلِ، حِينَ يَشْتَرِكُونَ فِي تَزْوِيجِ نَفْرِهِمْ لِبَنْتِهَا، وَتَنَاجِيهِهِ وَيَنْاجِيَهَا، ثُمَّ يَزْفُهُمُ الْأَنْفَارُ
جَمِيعًا بِنَشِيدِ جَمَاعِيٍّ.

غَيْرُ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ لَمْ يَسِرْ تَمَامًا كَمَا أَرَادَتْ عَزِيزَةٍ.
فَبَعْدِ يَوْمَيْنِ بَدَأَتْ تَسْخُنَ وَتُحْسِنَ بِدْقَ مَتَوَاصِلٍ يُفْتَنُ مَفَاصِلَهَا.
وَفِي الْيَوْمِ الْثَالِثِ بَدَأَتِ السَّخُونَةُ تَتَحَوَّلُ إِلَى نَيْرَانٍ تَتَصَاعِدُ مِنْ جَلَدِهَا وَجُوفِهَا.
كَانَتْ قَدْ أُصْبِيَتْ بِحُمَّى الْتَفَاسِ.

وَلَكُنْهَا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ مَاذَا أَصَابَهَا، وَلَا رَأَتْ أَبْدًا أَيْةً عَلَاقَةً مُمْكِنَةً أَنْ تَكُونَ بَيْنَ وَلَادِهَا
فِي الْعَرَاءِ عَلَى حَافَّةِ الْخَلْيَجِ وَبَيْنَ مَا يَحْدُثُ لَهَا. كُلُّ مَا أَحْسَتْهُ أَنْ جَسَدَهَا بَدَأَ يَخُونُهَا، وَأَنَّهَا
لَمْ يَعْدْ يَطْلَوْهَا فِي يَقْظَتِهَا أَوْ فِي مَنَامِهَا، وَلَمْ تَعْدْ قَادِرَةً عَلَى صَلْبِ حِيلَاهَا فِي الْخَطِّ.

وَلَكُنَّ الْآلَمُ الدُّنْيَا كُلُّهَا وَحَرَارَتِهَا كَانَ لَا يَمْكُنُ أَنْ تَشْنِيَهَا عَنِ الْعَمَلِ، فَاسْتَمْرَتْ تَسْرِحُ
وَتَرُوحُ وَتَمْسِكُ الْخَطِّ مُثْلِهَا مُثْلِ بَقِيَّةِ الْأَنْفَارِ، تَدُوَّخُ وَتَزُغِّلُ الدُّنْيَا فِي نَاظِرَيْهَا وَتَغُمُّ عَلَيْهَا
نَفْسَهَا، وَلَكُنَّهَا تَضْغَطُ عَلَى نَفْسَهَا — بِجَبْرُوتٍ — وَتَقاوِيمُ وَتَنْحَنِي وَتَعْمَلُ.

وَبِالضَّيْبِطِ لَمْ تَدْرِكْ مَاذَا حَدَثَ فِي الْيَوْمِ الْرَابِعِ أَوِ الْخَامِسِ، كَانَتْ فِي صَفِ الْأَنْفَارِ
يَقُولُونَ لَهَا: مَالِكٌ يَا عَزِيزَة؟ فَلَا تَرْدُ. وَفَجَأَةً وَقَعَتْ فِي الْخَطِّ، وَأَفَاقَتْ لِتَجَدَّدِ نَفْسَهَا تَحْتَ
«الظَّلِيلَةِ»، وَلَكُنَّهَا مَا كَادَتْ تُفْيِيقَهُ حَتَّى بَدَأَتْ تَصْرُخُ وَتَزْعَقُ وَكَانُهُمْ يَغْدِرُونَ بِهَا وَيَمْنَعُونَهُمْ
مِنْ أَنْ تَعْمَلَ. بَلْ قَامَتْ فَعْلًا تَرِيدُ مَوَاصِلَةَ الْعَمَلِ، وَلَكُنَّهَا دَاهِخَةً وَارْتَعَشَتْ سَاقَاهَا تَحْتَهَا
وَوَقَعَتْ. وَأَفَاقَتْ لِتَجَدَّدِ نَفْسَهَا مُبْلِوَلَةً بِالْمَاءِ الَّذِي رَشَوَهُ عَلَيْهَا.

وَرَغْمَ حَلْقَهَا الْجَافِّ وَرَعْشَتِهَا الْمُسْتَمِرَةِ وَأَزْيَزُ الْحُمَّى فِي جَسَدِهَا فَقَدْ كَانَتْ لَا تَرَالِ
فَرْحَةً أَنْ خَطَّتِهَا تَمْضِي بِنَجَاحٍ، وَأَنْ أَحَدًا لَا يَعْرِفُ وَلَنْ يَعْرِفُ أَنَّهَا الْفَاعِلَةُ.

وَلَكُنَّ خَطَّتِهَا قُدْرَ لَهَا أَنْ تَفْشِلَ عَنْ طَرِيقٍ لَمْ تَكُنْ قَدْ حَسِبَتْ حَسَابَهُ، فَالْحُمَّى بَاتَتْ تَشَتَّدُ.
وَبَدَأَتْ عَزِيزَةَ تَخْرُفَ.

أَمُّ الْحَسْنِ جَارِتَهَا فِي الرُّقَادِ بَدَأَتْ تَسْمِعُ كَلَامًا غَيْرَ مَفْهُومٍ عَنْ جَذْرِ الْبَطَاطَا
وَابْنِ قَمْرِينَ وَعَبْدِ اللَّهِ وَالْجَنِينِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ أَنْ يَكُفُّ عَنِ الْصَّرَاخِ.
وَمِنْ كَلِمَاتِهَا الْمُتَنَاثِرَةِ وَهَمْسَاتِ النَّسَاءِ وَإِضَافَاتِهِنَّ، تَكَامَلَتْ حَكَايَتَهَا وَأَصْبَحَتْ خَبَرًا.

وببدأ خبرها ينتقل من جار إلى جار، ويتسدل حول القُفَّف، ويُخطي المواقد، وينبِّش بين عيadan القش، ويتوقف لدى كل أذن صاغية. ولم يترك الخبر أذنًا لم يتوقف عندها. ولم تترك أذن الخبر إلا وأوقفته وفحصته وترددت كثيراً بين تصديقه وتذكيه، حتى آذان الصنج سمعت به.

ومع ذلك لم يَتَعَدَّ الخبر ذلك الفضاء الكائن خلف الإصطبلات أبداً. حرص الجميع على كتمانه وكأنه قد أصبح سرهم كلام، أو عورة كل منهم التي يجب أن يُبقيها بعيدة عن أعين الناس وألسنتهم وأذانهم. حتى تعليقاتهم الخاصة عليه بينهم وبين أنفسهم كانت خفيفة ومقتضبة. الرجال كانوا يكتفون بمصمصة الشفاه، وقد كفthem عزيزة — وما حدث لها وما لا يزال يحدث لها — أي كلمة زائدة أو تعليق خارج، والنساء والبنات طرحن الحكاية جانبًا وأصبحت عزيزة كل همهم، يطعنونها ويسيقينها ويعاونها في الذهاب إلى الغيط والمجيء، ويُمسكن خطها بدلاً منها، ولا يجعلن لها من عمل إلا الانحناء حين يمر المأمور أو الخولي.

وحين بلغ الرئيس عرفة الخبر، وتشاور مع كبار السن من الرجال، رأوا أن تكف عزيزة عن العمل تماماً وترقد.

ولم تتوافق عزيزة أبداً إلا بعد أن أخبروها أن أجرتها لن ينالها سوء، وأن يوميتها سوف تُحسب، وكان خوفها الأكبر إذا رقدت أن ينقطع أجرها فيموت عبد الله وأولادها من الجوع.

وحين رقدت عزيزة وقد اطمأن قلبها على سريان اليومية، بدا وكأنما المرض كان يختزن قوته كلها لهذه اللحظة. فقد أحسست — وكأنما فجأة — أنها فعلاً مريضة، وأن المرض قد استبد بها إلى درجة لم تعد تستطيع معها أن ترفع ساقاً أو تُحرّك يدًا.

مع أن المأمور كان هو أول من عرف بحكاية عزيزة إلا أن خبرها كان قد وصل إلى العزبة الكبيرة حتى قبل أن يصلها هو. ذلك أنه الخبر الذي انتظره الناس فيها طويلاً وتلقفوه تلقيف الملهوب، فلم يكن فيه حلٌّ للغز الذي حيرَهم فقط، ولكن الحل أيضًا على وجه مُرِضٍ، الحل كما أرادوه تماماً وخفقوا ألا يكون. حل بردت به صدورهم وهجعت خواطيرهم وأعاد لهم الثقة في أنفسهم وأخلاقهم ونسائهم وقيمهم، تلك الثقة التي ظلت حائزة مُعززة تحوم حولها الشكوك، وتتطاول عليها الألسن منذ اللحظة التي عشر فيها عبد المطلب الخفير على اللقيط.

ومن الفرحة التي قُوبل بها الخبر في العزبة كان يُخَيِّلُ إِلَيْكَ أَنَّهُ لَوْلَمْ تَكُنْ هَنَاءُ عَزِيزَةٍ وجَذْرُ بَطَاطَا لِتَكْفِلُ وَاحِدَهُمْ أَوْ أَكْثَرَ بِتَأْلِيفِ عَزِيزَةٍ مِنْ عَنْدِهِ، وَالصَّقُّ بِهَا مَا شَاءَ مِنْ جُذُورِ الْبَطَاطَا أَوْ كِيزَانِ الذَّرَّةِ، وَلَسَرَّتْ حَكَايَتِهِ وَدَارَتْ وَأَصْبَحَتْ – فِي النَّهَايَةِ – حَقْيَقَةً. فَإِنَّ يَعْوُدُ لِلنَّاسِ إِيمَانَهُمْ شَيْءَ ضَرُورِيٍّ، فَإِنَّ لَمْ يَعْدْ عَلَى هَيَّةِ حَقْيَقَةٍ فَلَيَعْدْ شَبَهَ حَقْيَقَةٍ؛ إِذَا إِيمَانُ سُوفَ يَتَكَفَّلُ بِهَا وَيَجْعَلُ مِنْهَا حَقْيَقَةً. وَالنَّاسُ تَرِيدُ الإِيمَانَ عَلَى أَيَّةٍ صُورَةٍ، فَإِنَّ لَمْ تَجِدْ مَا تَؤْمِنُ بِهِ فِي الْوَاقِعِ أَمْنَتْ بِهِ فِي الْحَكَايَاتِ.

هَلَّلَتِ الْعَزِيزَةُ الْكَبِيرَةُ لِلْخَبَرِ بِفَلَاحِهَا وَأَسْطَوَاتِهَا وَكُلِّ مَوْظِفِيهَا، وَهَنْتَى بِالسَّائِرِينَ فِي طَرَقَاتِهَا. وَكَلَّمَتِ التَّقِيَّ أَحَدَهُمْ بِالْآخِرِ صَرَخَ فِيهِ: مَشْ قَلْتَ لِكَ؟ عَلَيِّ الطَّلاقِ أَنَا مِنَ الْأَوَّلِ قَلْتَ إِنَّهُمْ التَّرْحِيلَةُ، جَالَكَ كَلَامِيْ؟

وَيُؤْمِنُّ الْآخِرُ عَلَى حَدِيثِهِ، بَلْ وَيَكَادُ يُقْسِمُ هُوَ الْآخِرُ بِيَمِينِ الطَّلاقِ وَيَنْتَقِلُ بِهِمَا الْحَدِيثِ مِنَ الْلَّقِيقَيْتِ إِلَى التَّرْحِيلَةِ أَنْفُسِهِمْ بِاعْتِبَارِهِمْ أَصْحَابَهُ وَالْمَسْؤُلِينَ عَنْهُ.

ذَلِكَ هُوَ مَا حَدَثَ، فَمَا كَادَ أَهْلُ الْعَزِيزَةِ يَطْمَئِنُونَ عَلَى سَلَامَةِ أَنْفُسِهِمْ حَتَّى بَدَأُوا يَسْتَدِيرُونَ لِلْغَرَابَوَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَجَاهِلُونَ وَجُودَهُمْ إِلَى تِلْكَ الْلَّحْظَةِ، وَيَعِيشُونَ عَلَى أَرْضِ التَّفْتِيشِ يَكَادُ لَا يَحْسُسُ بِهِمْ إِنْسَانٌ. بَدَأُوا كَلَّمَا ذَاعَ خَبَرُ عَزِيزَةٍ وَلَقِيَطَهَا وَحَكَايَتِهَا يُصْبِحُونَ مَحَطَّ أَنْظَارِ النَّاسِ وَمَحْلَ اهْتِمَامِهِمْ، وَلَكِنَّ أَيِّ اهْتِمَامٍ؟!

الْفَلَاحُونَ الْكَبَارُ وَالْمَزَارِعُونَ لَمْ يَفْعُلُوا الْخَبَرَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ هَيَّجُ كَامِنَ تَقْزُّبِهِمْ مِنَ الْغَرَابَوَةِ وَاَشْمَئِزَّاهُمْ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحَ الْحَدِيثُ عَنْهُمْ يَسْبِقُهُ أَوْ يَتَبَعُهُ سَيْلُ مِنَ الشَّتَائِمِ وَالْبَسْقَاتِ. كَانَ التَّرْحِيلَةُ فِي نَظَرِهِمْ حُثَّالَةً آدَمِيَّةً تَهْبَطُ عَلَى تَفْتِيشِهِمْ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنَ فِي الْعَامِ كَالْوَبَاءِ الَّذِي لَا مُفْرَّغُ مِنْهُ. فَمَا بَالِكَ حِينَ يَكْتَشِفُونَ أَنَّ تِلْكَ الْحُثَّالَةَ قَدْ صَدَرَ عَنْهَا شَيْءٌ حَرَامٌ – كَهُذَا الَّذِي حَدَثَ مِنْذَ أَيَّامٍ – حَاوَلُتُ إِخْفَاءَهُ وَإِلَصَاقَهُ بِأَهْلِ الْعَزِيزَةِ؟ التَّرْحِيلَةُ أَنْفُسِهِمْ كَانُوا يَكَادُوا يَصْبِحُونَ شَيْئًا حَرَامًا، وَكَانَ النَّاسُ جَمِيعًا مَخْلُوقَاتِ حَلَالٍ وَهُنَّ وَحْدَهُمْ مَخْلُوقَاتِ حَرَامٍ، أَيْةٌ بِشَاعَةٍ يَصْبِحُ عَلَيْهَا الْحَرَامُ إِذَا ارْتَكَبَ حَرَامًا!

نَسَاءُ الْفَلَاحِينَ هُنَّ الْأَخْرِيَاتُ كَانَ لَهُنَّ آرَاءٌ مُثْلَّةُ أَزْوَاجِهِنَّ وَآبَائِهِنَّ، بَلْ أَغْرَبَ مِنْ هَذَا كُنَّ أَكْثَرَ حَمَاسًا وَأَكْثَرَ تَحَامِلًا، وَكَانُوهُنَّ يَسْتَكْثِرُنَّ عَلَى التَّرْحِيلَةِ أَنْ تَحْمِلَ إِحْدَاهُنَّ مُثْلَمًا يَحْمِلُنَّ، وَأَنْ تَلِدْ مُثْلَمًا يَلْدَنَ، حَتَّى لَوْ كَانَ حَمْلُهَا وَوَلَادَتُهَا حَرَامًا فِي حَرَامٍ.

وَفِي عُودَةِ مَسِيَّةِ أَفْنَدِي إِلَى بَيْتِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَانَ فَرَحًا عَلَى غَيْرِ الْعَادَةِ، بَلْ دَفْعَهُ الْفَرَحِ إِلَى التَّهُورِ، وَآلَى عَلَى زَوْجِهِ أَنْ تَذَبَّحَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَتَوْسُّعَ.

وزاط دميان للاقتراب، لأنه سيأكل الرءوس والجناحين كعادته كلما ذبحوا دجاجاً ولكن لأنَّ معنى هذا أن يُتاح له أن ينطفف الريش عن الطير المذبوح، وأهم من هذا سُيُّتاح له أن يفتح «القوانين» بالسكنين، وفرحته الكبرى كانت حين يُخرج أحشاء الدجاجة أو البطة ويتناول منها «القوانين» ويجري عليها السكين فيقسمها نصفين، ويتحسس الحصا الأصغر الذي يعثر عليه داخلها ثم يُزيل قشرتها الداخلية التي تتطلع في اليد مرة واحدة دون تمزق وبلا مجهود، وتصبح القوانصة بعدها نظيفة تكاد — من نظافتها — أن يلتهمها دميان التهاماً وهي نية.

وضحت لنده مداعبات أبيها، وقليلًا ما كان يداعبها، ووُجِدَت الفرصة مناسبة فطلبت منه أن يسمح لها بزيارة أم إبراهيم زوجة «أبو» إبراهيم الفقي؛ إذ مرضت المسكينة وأرسلت تطلبها، والعادة كانت قد جرت ألا تخرج لنده إلا لزيارة أسرة المأمور أو في أفراح كبار الفلاحين إذا دُعِيت إلى فرح، ولكن مسيحة أفندي كان في الحالة التي ممكِّنُ أن يسمح فيها بأي شيء ولو كان خارقًا للعادة. ألقى نظرة جانبية على أم لنده وكأنه يطلب رأيها، فرفعت حاجبيها حتى بدا أن رقبتها الرفيعة ترتفع هي الأخرى وتصبح أكثر طولًا، وقالت: والله أنت حر.

قال مسحية أفندي بتهليل: خلاص، روحي يا ست لند، بس خدي بالك لحسن تعديكي، حاكم بيوت الفلاحين مليانة ميكروب.

وكان فكري أفندي المأمور أجدر الناس بالفرحة، فهو الذي – بالفطنة والسليةة – أشار إلى الترحيلة من أول لحظة وأكد أنهم الفاعلون، وهو الذي ظل يدأب ويسعى حتى كُلُّ مساعيه بالنجاح وتحقق فراسته، وعثر على الحانة في الترحيلة.

ولكنه حين عاد إلى العزبة لم تكن على سيماه معالم فرح أو بشائر انتصار، بالعكس كانت ملامحه غائمة، فيها خيبة أمل وبرودة تفكير، حتى حين قابله محبوب البوسطجي الذي كان قد عاد إلى الحياة مع زكية بعدما تكفل المأمور برد عقلها وإصلاح ما بينهما حتى إنه جعلها تُقبل أمامه قدميًّا محبوب، وفَعَلَتْ هذا ومحبوب يستغاث ويرفض قائلًا إنها ستخلص منه كل هذا حين تتفرد به في البيت بعيدًا عن الناس. حتى حين قابله محبوب وهو لا يزال مُعلقاً حقيقة الخطابات إلى جنبه مع أن عمله كان ينتهي بعد فوات قطار الرابعة، ولكنه كان يحب ألا يراه الناس إلا وتحت إبطه الحقيقة وكأنما ليميز نفسه بشيء عن بقية الناس. حين قابل «محبوب» ورأه مغمومًا أحب أن سُرِّي عنه كعادته، وقال له

إنه من يوم الحكاية إياها بدأ يتعلم القراءة والكتابة على يد الشيخ «أبو» إبراهيم الفقي حتى لا تستغله زكية مرة أخرى، لم يضحك المأمور ولا حتى رد على محبوب أو حفل به، بل ما كاد يهبط من فوق الرّكوبة حتى توجّه إلى بيته في الحال وقال لزوجته إنه يريد قهوة، وحين جاءت وجدته نائماً على الكرسي فلم تشاً إيقاظه.

وفي إغفائه رأى فكري أفندي نفسه نائماً مع عزيزة تحت الظلّيله والأنفار كلهم يتفرّجون عليه وعليها، وكان زوجها – ببطنه المنتفخ – واقفاً ممسكاً خطأً مع الأنفار، وكان هو الآخر يتفرج ولا يفعل شيئاً أكثر من أن يقول: حرام عليك يا حضرة المأمور، حرام عليك، دي عيانة.

وأفاق فكري أفندي مُختنقاً وكأنه يُعاني من كابوس.

ظلّت اللعنات تنهال – طوال النهار – وتنصب على الترحيلة وتندد بهم حتى من جندي صاحب الدكان والوحيد الذي كان يستفيد من وجودهم في التفتيش، كان يلعنهم حتى في وجودهم، ويبدي اشمئزازه من أيديهم الكثيرة الممتدة إليه، قائلًا لهم إنه قد أصبح يستبعش حتى مجرد لمس نكّلهم وملايهم، وكأنها هي الأخرى لقطاء جاءت من حرام وذاهبة إلى حرام وملمسها خطيبة.

أولاد الفلاحين وصبيانهم فقط هم الذين – دوناً عن قاطني التفتيش – كان لهم رأي آخر في المساء. في النهار فعلوا مثل كل الناس، وكلما صادفوا امرأة من نساء الترحيلة كانوا يأخذون في زفها والتطبيل على صفيحة قديمة وراءها. أما حين جاء الليل فقد أصبح لهم رأي آخر، وأولاد العزبة – كل الألاد – يحبون الليل واللعب فيه. الليل حين يتسبّع الفضاء المحيط بالعزبة بضوء القمر، ووسوسة الليل، ونقيق ضفادعه، والرائحة التي يضيّفها الظلام على الأرض، حتى الزرع الأخضر تصبح له في الليل رائحة، وكأنه يدّخر أذكى روائحه للليل. ينسى الألاد – حينئذ – أحقاد النهار وخلافاته ومشاحناته، ينسون حتى آباءهم وزجرهم، وينسون اليوم الشاق الآتي، وكأنهم لا يعودون يذكرون إلا أنهم أبناء لحظتهم، أبناء الليل والأرض، وإخوة الضفادع والنجوم، وأحباب ذلك القمر الحنون النظيف ويلعبون. يلعبون الاستغمامية، وضربونا موناً لما ع蒙نا، وعسکر وحرامية، والحجر دقق، وسرح. يبدئون اللعبة وفي دورين يكونون قد زهدوا فيها، فينتقلون بخفة وبساطة إلى غيرها وغيرها، ضاحكين صاحين لا يُعكّر صفوهم مُعكّر.

في تلك الليلة اقترح واحد من الألاد على زملائه أن يذهبوا ويترجّلوا على الترحيلة وأولادها وهم يلعبون. وفوجئ صاحب الاقتراح نفسه بالضجيج العظيم الموافق الذي لاقاه

اقتراحه؛ إذ هو قد اقترح هذا وهو خائف؛ ذلك أن من الأمور المتعارف عليها بين الفلاحين أهل العزبة أن من المستحب على أولادهم أن يلعبوا مع أولاد الترحيلة أو حتى يقتربوا منهم، وكأنهم سُيُّصابون بالجذام لو فعلوا هذا. ولم يكن أحد يسأل عن سر ذلك التحرير أو يحاول مناقشته، وهل يستطيع أحد أن يناقش أباًه حين يقول له هذا عيب، أو هذا حرام، حين تُذكِّر كلمات كهذه فعلَ الولد أن يطِيع وليس عليه أن يقول ثلثة كام.

هَلَّ الأَوْلَادُ لِاقْتِرَاحِ زَمِيلِهِمْ مُوَافِقِينَ، مَعَ عِلْمِ كُلِّ مِنْهُمْ أَنَّهُ شَيْءٌ عَيْبٌ لَا تُصْحِحُ الْمَوْافِقَةَ عَلَيْهِ، وَحِينَ تَبَيَّنُوا أَنَّهُمْ جَمِيعًا مُوَافِقُونْ مُتَحَمِّسُونْ ازْدَادُوا خَفَّةً وَحَمَاسًا لِتَنْفِيذِ الْاقْتِرَاحِ وَكَانَهُ لَمْ يَعُدْ حَرَامًا، وَكَانَ الشَّيْءُ الْحَرَامُ إِذَا وَافَقَ عَلَيْهِ الْجَمِيعُ أَصْبَحَ حَلَالًا زُلْلًا لَا شَكَ فِيهِ.

وَمَا أَسْرَعَ مَا أَصْبَحُوا يَتَسَابِقُونْ لِيَرَوْا أَيْهُمْ يَسْتَطِعُ الْوَصْولُ أَوْلًا إِلَى مَكَانِ التَّرْحِيلَةِ وَكَانَ مَعْجَزَةً تَنْتَظِرُهُمْ هُنَاكَ، أَوْ كَانُهُمْ — عَلَى الْأَقْلَ — سَيِّرُونَ تَلَكَ الْمَرْأَةَ الَّتِي سَمِعُوا آبَاءَهُمْ وَأَمْهَاتَهُمْ يَنْعَتُونَهَا بِأَقْبَحِ الْأَلْفَاظِ وَيَصِّمُونَهَا بِأَشَنْعَ الْتَّهَمِ.

وَلَكِنَّ مَا إِنْ عَبَرَ الْمُتَسَابِقُونَ الْقَنْطَرَةَ الْحَجَرِيَّةَ الَّتِي تَنْفَذُ الْعَزْبَةَ الْكَبِيرَةَ عَنْ مَبَانِي الْإِدَارَةِ وَالسُّرَايَةِ وَالْمَخَازِنِ وَالْجُرْنِ وَالْإِصْطَبَلَاتِ وَوَصَلُوا إِلَى مَا خَلَفَ الْأُخْرِيَّةِ، وَرَأَوْا فِي الظَّلَامِ الْمَقَاطِفَ وَالْقُفَّافَ وَالْزَّلْعَ مَرْصُوصَةً مُتَنَاثِرَةً كَشَوَاهِدَ وُضُعِّتْ خَصْوَصًا لِتَدَلُّ عَلَى مَكَانِ التَّرْحِيلَةِ. مَا إِنْ رَأَوْا هَذَا حَتَّى كَفُوا عَنِ الْجَرِيِّ ثُمَّ رَاحُوا يَتَسَلَّلُونَ الْوَاحِدَ وَرَاءَ الْآخَرِ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِمْ لِيَصِلُوا إِلَى حِيثَ يَلْعَبُ أَوْلَادُ التَّرْحِيلَةِ، لَا بُدَّ فِي وَسْعَايَةِ الْجُرْنِ، وَكَانُوا خَائِفِينَ جَدًا وَهُمْ يَتَسَلَّلُونَ عَبَرَ مَكَانِ التَّرْحِيلَةِ وَكَانُوهُمْ مَارُونَ عَلَى قَبِيلَةِ مِنْ قَبَائِلِ الْجَانِ حَطَّتِ رَحَالُهَا وَنَامَتِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ. وَمَعَ خَوْفِهِمُ الشَّدِيدِ فَلَمْ يَسْتَطِعُو كُلُّمَا ضَحَّكَاهُمْ، فَقَدْ سَمِعُوا أَصْوَاتَ شَخِيرٍ كَثِيرٍ مُتَصَاعِدَ مِنِ التَّرْحِيلَةِ، شَخِيرٌ غَيْرُ مُنْتَظَمٍ تَمَامًا كَنْقِيقِ الضَّفَادِعِ فِي الْخَلْيَجِ الَّذِي يَجَاوِرُهُمْ وَأَرْضِ الْأَرْزِ، وَالَّذِي أَضْحَكَهُمْ أَنَّ الضَّفَادِعَ كَانَتْ تُتَقْنِقُ فِي بَيْدُو وَكَانَ التَّرْحِيلَةَ تَرُدُّ عَلَيْهَا بِشَخِيرِهَا، وَكَلَّمَا شَخِيرِ التَّرْحِيلَةَ رَدَّتْ عَلَيْهَا الضَّفَادِعَ بِالنَّقِيقِ. وَفَعْلًا كَانَ أَوْلَادُ التَّرْحِيلَةَ يَلْعَبُونَ فِي وَسْعَايَةِ الْجُرْنِ بَعِيدًا عَنْ آبَائِهِمُ الرَّاقِدِينَ مُتَعَبِّينَ، وَبَعِيدًا فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي يَلْعَبُ فِيهِ أَوْلَادُ الْعَزْبَةِ. لَمْ يُحِرِّمْ أَحَدٌ عَلَيْهِمُ الْاقْرَابَ مِنْ أَوْلَادِ الْعَزْبَةِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ وَلَكِنَّ مِنْ مُجَرَّدِ مُعَامَلَةِ الْفَلَاحِينَ لَهُمْ كَانُوا يَدْرُكُونَ أَنَّ هَذَا — بِالْتَّأْكِيدِ — شَيْءٌ مُحَرَّمٌ، وَأَنَّ وَاجْبَهُمْ أَنْ يَبْتَعِدُوا عَنِ الْعَزْبَةِ وَأَوْلَادَهَا قَدْرِ الطَّاقَةِ. وَقَفَ أَوْلَادُ الْعَزْبَةَ مِنْ بَعْدِ يَتَرَفَّجُونَ، وَكَانُوا يَتَوَقَّفُونَ هُنْيَةً وَكَانُوهُمْ يَتَوَقَّعُونَ مُعَارِضَةً أَوْ زَجْرًا، وَحِينَ لَا يَجِدُونَ يَتَقَدِّمُونَ. الْجُرْنُ وَاسِعٌ كَبِيرٌ فِيهِ أَكْوَامٌ هَائِلَةٌ مِنْ

تبين ماكينة الدراس يكاد يصل في ارتفاعه إلى ارتفاع السراية نفسها، وفيه أكواه ضخمة من القمح، وفيه نوارج أتى بها الفلاحون الذين يرفضون أن يدرس قمحهم في ماكينة الدراس، والذين آثروا أن يدرسوا على النوارج ولو أخذ أياماً أكثر، فقمح النورج – كما يقولون – مبروك، والماكينة على الأقل تلتهم ثلث المحصول بسرعتها الفائقة المشؤومة. وأولاد الترحيلة كانوا قد اختاروا للعبهم بُقعة فسيحة غير مشغولة تحيطها أكواه القمح والتبن من كل الجهات. وخلف تلك الأكواه وداخلها احتشد أولاد العزبة يتفرجون، وظلوا وقتاً طويلاً لا يفهمون شيئاً مما يدور أمامهم، وكأنهم يتفرجون على أولاد من جنس آخر أو ملة ثانية؛ فلغتهم غير مفهومة، وألعابهم غريبة، وحتى ضحکهم يبدو مختلفاً تماماً عن ضحک الأدميين.

ولكنهم – بعد حين – بدءوا يُدرِّكون بعض ما يدور أمامهم، فأولاد الترحيلة كانوا، على ما يبدو، يُمثّلون، وقد وضع شاب منهم شيئاً كمشنة الخبز فوق رأسه ليتمثل بها دور بائعة جبن، وشاب آخر كان يمثل دور عسكري، وحوار بالأغاني يدور بين العسكري وبائعة الجبن، العسكري يتَمَحَّك طالباً نقوداً وبائعة تتَبَعَّد وتحاول أن تَرْشُوه بقطعة جبن مُعَدَّدةً مزايها، والشاويش يرفض ويريد نقوداً ويزجرها ويوبخها بصنعة لطافة. لغة غريبة وطريقة غريبة في اللعب يتبعها هؤلاء الأولاد، ولولا لفظة «شبنة» التي عرفوا أنها «شبنة» لما كانوا قد فهموا شيئاً من كل هذا. الغرابة إذن لهم ألعابهم هم الآخرون، ألعاب لا يعرفونها هم. لماذا إذن يزدرى بهم آباءهم وسكان العزبة كل هذا الإذراء؟ ليتهم يرَضُّون أن يشاركونهم اللعب.

كان هذا مجرد خاطر عن لأولاد العزبة جميماً وكأنما عن لهم في نفس واحد، وكالعادة انتقل الخاطر على الفور من أذهانهم إلى ألسنتهم، ومن ثم إلى أجسادهم وأرجلهم، فتركوا أمكنتهم وتقادموا إلى أولاد الترحيلة. ولم يأخذ الأمر أكثر من كلمة واحدة: تلعبوا معانا؟ نلعب معكم. وتصاعدت على الفور تهليلة كبيرة من أولاد العزبة والترحيلة معاً، تهليلة جاءت بعد المطلب الخفير من عند الخليج وجعلته يطير وراءهم ويطاردهم حتى أجلاهم عن الجُنُن. ولكن أولاد العزبة كانوا ماكرين فقد اقتربوا على أولاد الترحيلة أن يذهبوا جميماً ويلعبوا وراء ماكينة الري فهناك مكان مُتسع بعيد عن عبد المطلب وبعيد عن العزبة وبعيد حتى عن مكان الترحيلة.

وفي اللعب اختلط الأولاد بالأولاد. واكتشف أولاد العزبة أن الأولاد الآخرين ملامحهم مختلفة عن بعضهم البعض وليس لهم شبه واحد كما كانوا يعتقدون قبلاً، وملامحهم

سمحة وطيبة، بل ويضحكون أيضًا ولكل منهم اسم، بل سرعان ما حفظوا بعض أسمائهم. مصباح وبدوي وحسن والولد الأسمير سنجر، ولهم مُهرج، ولد رفيع مثل عود الملوخية ولكنه يُميت من الضحك.

وفي تلك الليلة عاد الأولاد إلى بيوتهم في العزبة، وهم لا يريدون العودة، فقد سعدوا بلعبهم مع أولاد الغرابية أيمًا سعادة وتعلموا منهم ألعابًا جديدة. لعبة عشرة وعشرين مثلاً، حيث يضع أحدهم طاقيته فوق كومة تراب، ويقيسون عشر خطوات من الكومة وعشرين خطوة من الناحية الأخرى، ويقف متسابقان عشر خطوات من الكومة وعشرين خطوة من الناحية الأخرى، ويقف متسابقان عند كل نقطة، فإذا ما استطاع صاحب العشر الخطوات أن يجري من نقطته إلى الكومة ويختطف الطاقية ويرجع إلى مكانه قبل أن يلحق به زميله الذي يبعد عن الكومة عشرين خطوة، كان هو الغالب ووقع زميله.

عاد الأولاد يتسلّلون إلى مصالحهم من سُكّات، وفي عزّهم الأكيد أن يذهبوا كل ليلة ويلعبوا مع أولاد الغرابية، وفي عزّهم الأكيد أيضًا أن يُخفوا هذا عن آبائهم حتى لو فُتن عليهم عبد المطلب الخفير.

على ضوء لمبة نمرة خمسة نُظّف زُجاجها بعناية حتى لا يحجب أي قدر — ولو ضئيلًا — من النور، موضوعة على رف خشبي في أعلى الحائط. كانت الحجرة تبدو أنيقة مُرتبة على غير ما جرت به العادة في بيوت الفلاحين. فالسرير البoscة ونصف المرتفع الذي يكاد يحتاج إلى سلم للصعود عليه نظيف ومحفظ في، و«دابرُه» الأسفل يحجب ما تحته من گراكيب وخزين، و«دابرُه» الأعلى يُزيّن الناموسية، وفي الواجهة دولاب وإن كانت مرآته مشروحة إلا أن الشُّرُخ رُسم عليه بالإسبيداج شجرة ذات أزهار وأثمار لتخفي الشُّرُخ. وبجوار السرير مُقعد بمسندَين له كسوة من قماش أبيض بُولغ في تزهيره في أثناء الغسيل. والأرض وإن كانت جرداء بلا خشب أو بلاط إلا أنها مكنوسة ومرشوشة ومُغطاة بطبقة رقيقة من الرمل. والقلل موضوعة في الشبّاك عليها أغطيتها المعدنية وفوقها شاشة زيادة في الحرص على النظافة والأناقة، بالاختصار كل شيء في الحجرة يحاول أن يُبدي أحسن ما فيه.

وكان بالحجرة شخصان لا ثالث لهما، أم إبراهيم نائمة على السرير في أتم صحة وأبهى منظر، وإن كان من يشاهدها ويرى كيف تتكلّم وتتأوه يظن أنها مريضة في عنفوان المرض، ولنده جالسة على الكرسي الوحيد بالغرفة مبهورة بالبيت الغريب الذي تدخله لأول

مرة، تتأمل في دقة النساء كلَّ شيء فيه وتعجب له، هي التي لا تغادر بيتهن وحجراتهن إلا في النادر حتى أصبحت مجرد زيارتها لبيت آخر – ولو بيت الشيخ «أبو» إبراهيم الفقي – حدثاً تستحق من أجله أن تجلس مبهورة الأنفاس.

كانت أم إبراهيم هي التي تقوم بالعبء الأكبر من الحديث، مع أن الحديث نفسه كان قليلاً. ولم يكن كلام أم إبراهيم يخرج متصلاً متسلسلاً كعادتها، كان يتقطع وكأن صاحبته مشغولة بشيء أو تتوقع شيئاً. وكانت لنده تنصت أغلب الأحيان، وأحياناً شارك في الحديث وتَرُدُّ بجملة أو بضحكه قصيرة عصبية، وكأنها خائفة من شيء أو ت يريد أن تخاف من شيء. الواقع أنها كانت في أبهى مظهرها، وجهها أبيض مُحمر قد طُلِّي بطبقة خفيفة من البويرة لا تكاد تلحظها العين، وشعرها لامع مُسَرَّح بحيث تَنْدَلُّ خصلة منه على جبهتها، وأنفها وملامحها، وتقاطيعها وكل شيء فيها أنيق جميل، رائع في أناقته وجماله لا يكاد يُقاس أو يُقارن بالحجرة المتواضعة الجالسة فيها، خاصةً وهي ترتدي أحسن وأَجَدَّ فساتينها الثلاثة، ذلك الذي فَصَّلَته في أثناء زيارتها الأخيرة لأقاربها في شبرا مصر.

كانت أم إبراهيم قد بذلت جهود الجبارية خلال الأيام القليلة التي مضت على تلك الكلمة التي أسرها إليها أحمد أفندي سلطان عند الجامع. كانت العقبات التي أمامها ضخمة، وليس من السهل التغلُّب عليها، فمجرد الانفراد بلنده مشكلة فما بال الحديث الطويل إليها؟ والحديث الطويل ضروري، فلنده وإن كانت قد جَاءَتْ سن الزواج بسنين إلا أنها من تلك الناحية خام من الدرجة الأولى، ثم إنها متعلمة وتفهم، وعلى الرغم من خبرتها فأم إبراهيم جاهلة لم تغادر أرض التفتيش قط، الحديث إذن إلى لنده أمر محفوف بالمخاطر خاصةً إذا كان يدور حول أمور دقيقة ومُخجلة مثل تلك.

ولكن أم إبراهيم استطاعت أن تَنْخَطُّ العقبات، وعلى عكس ما تَوَقَّعَتْ استجابت لنده لكلامها بشكل لم تكن تَتَخَيلَه. فأم إبراهيم كانت قد دخلت إليها من باب لا يُخَيِّب، باب الرجال وأسرارهم، الرجال، ذلك العالم المُغلَّق البعيد كل البُعْد عن لنده ومساعها، هؤلاء الأدميين الحشين الذين يبدون أشد قوة وضراوة من أبيها وإخواتها الصغار، والذين حين تراهم تجفل رغماً عنها وتَكاد تجري. بدأت أم إبراهيم تحدثها عنهم – بل عن أخص خصائصهم – حديث العالمة الخبرية، حديث الجسد الذي لا يقوله الرجال أبداً إلى النساء، وإنما يقوله الرجال بعضهم لبعض ولا تتناقله النساء إلا همَا وإنما على انفراد، الحديث الذي لا يُخَيِّب في جر الألسُّن للحديث وفَكَ عُقدَ الخجل. ومن أول كلمة استجابت لنده وبدأت تصغي محاذرة أن تساهم – من قريب أو من بعيد – في الحديث، ولكنها بعد قليل بدأت

تَدَعُّي الجهل أحياناً وتسأل، ربما لتأكد، وربما ل تستمتع بالكلمات تُلقي على مسامعها مرة أخرى. ثم بدأت تُلقي تعليقات سريعة خجل، وأم إبراهيم ترقبها، في أثناء هذا كله، في دهاء الصائد الماهر الذي ينتظر، بصر، إلى أن تبتلع ضحيته الطُّعْمُ، ثم يبدأ يجذب برفق وهوادة ودون أن يُفزع الضحية أو يروعها. وهكذا راحت أم إبراهيم تنتقل من الحديث عن الرجال بشكل عام إلى الحديث عنهم بشكل خاص، وتُفرق بينهم، وتُصنف، وتُوضع القوي في جانب والفحل في جانب آخر. وكان من الطبيعي جداً أن تبدأ في التطبيق، وأن تذكر على سبيل المثال بعض الرجال المعروفين في التفتيش، وأن يأتي ذكر أحد سلطان، وأن توقف عنده أم إبراهيم طويلاً وتصف ما يُشاع عنه، وتضعه كأعمى مثل للرجل والفحل والذكر. هنا بدأت لنده تخلج وتكلاد تغلق أذنيها عن السماع، ولكن إلحاد أم إبراهيم كان لا بدّ أن يتغلب على خجلها ويفتح أذنيها البكر، إلحاد خبيرة يبدو وكأنه دلال وتقُل، إلحاد من تعرف كيف تتكلم ثم تصمت حين يبلغ حب الاستطلاع بسامعتها أشدّه، وكيف تقطع الحديث فجأة إذا رأت الخوف الحقيقي الذي يعقبه الرفض يتسرّب إلى سامعتها من هول ما تقول، تاركةً للأيام والساعات والتأمل المنفرد والتطلع إلى الشيء المُحرّم الجديد أن تفعل فعلها، وتُلّين الحديد، وتجعل من المموج مقبولاً ومعقولاً ومرغوباً.

وكان أن أصبحت لنده تؤمن بأشياء كثيرة، تؤمن بأن البنات يمكنهن أن يستمتعن بما تستمتع به النساء ويبيّنن مع هذا بنات، تؤمن بأنها تعيسة ومحرومة من أكبر سعادة، وأنها ستظل هكذا إلى أن تتزوج، ومتى تتزوج؟ الله - وحده - يعلم. وتؤمن بأن هناك شيئاً لازماً لجسد الأنثى هو الرجل. وكانت أم إبراهيم قد تكفلت بجعلها كلما فكرت في الرجال تقرنهم في خاطرها حتى بأحمد سلطان.

عند هذا الحد بدأت أم إبراهيم تُغير النغمة، وتحمل سلامات من أحمد سلطان للست لنده. سلامات كانت تعجب لها لنده أول الأمر؛ إذ إن أحمد سلطان هذا له في التفتيش سنوات دون أن يُرسل لها سلاماً أو كلاماً. ثم إن السلام الوحيد الذي كانت تهتز له لنده هو السلام حين كان يجيئها من صفات، ونادرًا ما كان يجيئها من صفات سلامات.

ولكن أم إبراهيم كانت بارعة، فكانت توصل إليها السلام وكأنه شيء من وحي الساعة بلا هدف وبلا تدبير. ثم بدأت السلامات تصبح عن عمد، ثم فتحت أم إبراهيم للنده قلبها وأخبرتها أنها تريده أن تقول لها سرّاً خفياً لا يعرفه إنس ولا جان. ولم تبدأ بإخبارها إلا بعد أن أقسمت لنده بال المسيح والإنجيل أنها لن تُخبر أحداً، وأعادت القَسْمَ لكي يطمئن قلب أم إبراهيم. حينئذ قالت لها أم إبراهيم مبهورة الأنفاس وكأنها الرجل حين يعترف لفتاة،

قالت لها إنَّ أَحْمَدَ سُلَطَانَ يُحِبُّهَا حَبًّا لَا يَتَصَوَّرُهُ الْعَقْلُ، وَأَنَّهُ لَا مَطْمَعٌ لَهُ وَلَا هَدْفُ أَبْدًا مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَبِّ، كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهَا زَارَتْهُ ذَلِكَ النَّهَارَ حِينَ تَعْبُهُ جَنْبَهُ فَبَاحَ لَهَا – فِي نُوبَةِ ضُعْفٍ – بِسُرْهُ، وَطَلَبَ مِنْهَا أَنْ تَكْتُمَهُ دُونًا عَنِ النَّاسِ جَمِيعًا، وَدُونًا عَنِ لَنْدَهُ بِالذَّاتِ. وَلَكِنَّ لِلصَّادِقَةِ قَيْوَدًا وَوَاجِبَاتٍ، وَلَمْ تَتَصَوَّرْ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ نَفْسَهَا أَنَّهَا تَعْرِفُ شَيْئًا خَطِيرًا كَهُذَا وَلَا تَقُولُهُ لِحَبِيبَتِهِ رُوحَهَا لَنْدَهُ. وَفِي أَوَّلِ مَرَةٍ ضَحَّكَتْ لَنْدَهُ حَتَّى كَادَتْ تَمُوتُ مِنَ الْضُّحْكِ، ضَحَّكًا جَعَلَ أَمَّ إِبْرَاهِيمَ يَدِقُّ بِالْأَطْسُرَابِ؛ إِذْ خَوْفُهَا الْأَكْبَرُ كَانَ أَنْ تَأْخُذَ لَنْدَهُ الْأَمْرَ عَلَى مَحْمَلِ الْهَذْلِ فَيَفْسُدَ تَدْبِيرَهَا وَيَفْسُدَ كُلَّ شَيْءٍ. وَلَنْدَهُ – فَعَلًا – كَانَتْ قَدْ أَخْذَتِ الْأَمْرَ دُونَ أَنْ تَلْقَيَ إِلَيْهِ بِالْأَكْثَرِ؛ إِذْ كَانَ شُغْلُ أَحْلَامِهَا الشَّاغِلُ أَنْ تَتَصَوَّرْ صَفَوْتَ ابْنِ الْمَأْمُورِ وَهُوَ يَطَّالِعُهَا بِوجْهِهِ الْحَبِيبِ إِلَى نَفْسِهَا وَيَقُولُ لَهَا هَذَا الْكَلَامُ. وَلَمْ تَكُنْ تَتَوَقَّعْ أَبْدًا أَنْ يَأْتِيَهَا كَلَامُ كَهُذَا مِنْ نَاحِيَةِ أَحْمَدَ سُلَطَانَ، مَرْءُوسٌ أَبِيهَا الَّذِي لَا يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ فَتَىً أَحْلَامَ بَنْتِ فِي مَثَلِ هِيَّئَتِهَا وَمَرْكَزِهَا.

حِينَ أَحَسَّتْ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ بِهَا غَيْرَتْ مَوْضِعَ الْحَدِيثِ فِي الْحَالِ وَلَمْ تَحَاوِلْ مَجَادِلَتِهَا أَوْ إِقْنَاعَهَا، وَلَكِنَّهَا عَاتَتْ إِلَى الْحَدِيثِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي بِطَرِيقِ التَّلْمِيْحِ وَالْإِشَارَةِ الْعَابِرَةِ. وَفِي الْمَسَاءِ عَادَتْ تَطْرُقُ الْمَوْضِعَ وَفِي كُلِّ مَرَةٍ كَانَتْ تَقَابِلُ فِيهَا لَنْدَهُ كَانَتْ تَصَفُّ لَهَا فِيهَا حَالَةُ أَحْمَدَ سُلَطَانَ وَمَا يَعْانِيهِ مِنْ وَجْدٍ وَهُيَّامٍ حَتَّى تَأْكُدَتْ لَنْدَهُ تَمَامًا وَاقْتَنَعَتْ فَعَلًا أَنَّ أَحْمَدَ سُلَطَانَ يُحِبُّهَا دُونَ أَدْنَى شَكٍّ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَسْتَطِعُ أَنْ تَفْعُلْ مِنْ أَجْلِهِ شَيْئًا. قَالَتْ هَذَا لِأَمَّ إِبْرَاهِيمَ، وَأَمَّ إِبْرَاهِيمَ بِدُورِهَا لَمْ تُعْلِقْ عَلَى قَوْلِهَا بِشَيْءٍ، وَإِنَّمَا ظَلَّتْ تَذَكِّرُهُ لَهَا كَلَمًا اجْتَمَعَتْ بِهَا. وَلَكِنَّهَا فِي يَوْمٍ لَمْ تَذَكِّرْ لَهَا شَيْئًا عَنِ أَحْمَدَ سُلَطَانَ مَمَّا أَثَارَ دَهْشَةَ لَنْدَهُ وَعَجَبَهَا. وَحَاوَلَتْ لَنْدَهُ يَدِفَعُهَا حَبَّ الْأَسْتَطْلَاعِ أَنْ تَدْقُ عَلَى أَطْرَافِ الْمَوْضِعِ مِنْ بَعِيدٍ وَلَكِنَّ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ تَسْتَجِبْ وَلَمْ تَفْتَحْ فَمَهَا بِكَلْمَةٍ وَاحِدَةٍ عَنْهُ. وَكَادَتِ الْجَلَسَةُ تَنْتَهِي دُونَ أَنْ يَرِدَ لَهُ عَلَى لِسَانِهَا ذَكْرٌ، بَلْ وَبِدَأَتْ تَسْتَعِدُ لِلْقِيَامِ بِحَجَّةِ أَنَّهَا لَمْ تَطْبَخْ بَعْدَ وَأَنْ «أَبُو» إِبْرَاهِيمَ زَمَانَهُ عَادَ لِلْبَيْتِ. وَأَلْحَّتْ عَلَيْهَا لَنْدَهُ أَنْ تَقْعُدْ وَصَمَّمَتْ هِيَ عَلَى الْقِيَامِ، وَحِينَئِذٍ فَقَطْ قَالَتْ لَنْدَهُ – وَكَأَنَّ الْأَمْرَ لَا يَعْنِيهَا – إِنَّ أَبَاهَا سُوفَ يَكَلِّمُ الْمَأْمُورَ لِيَنْقُلُ أَحْمَدَ سُلَطَانَ مِنْ بَيْتِهِ الْمَلَاصِقِ لَهُمْ إِلَى بَيْتِ آخَرِ، وَمَعَ أَنَّ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ تَعْلَمْ تَمَامًا أَنَّ هَذِهِ كَذَبَةٌ اخْتَرَعَتْهَا لَنْدَهُ فِي التَّوْ وَاللَّحْظَةِ إِلَّا أَنَّهَا ابْتَسَمَتْ حِينَ سَمِعَتْ هَذَا وَرَفَعَتْ ثُوبَهَا وَجَلَسَتْ. وَبِدَأَ بَيْنَهُمَا حَدِيثٌ خَجِلٌ مُّتَعَثِّرٌ وَكَأَنَّ كُلَّهُمَا تَخَجَّلَ أَنْ تَخُوضُ فِي مَوْضِعِ شَائِكِ الْمَهْنَمِ أَنَّ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ أَدْرَكَتْ أَنْ حَبَّ الْأَسْتَطْلَاعِ بَدَأَ يَتَحَرَّكُ فِي حَنَاءِ لَنْدَهُ، وَكَانَتْ تَعْرِفُ أَنْ حَبَّ الْأَسْتَطْلَاعِ إِذَا اسْتَبَدَ بِالْمَرْأَةِ أَصْبَحَ سَيِّدَهَا الْأَعْلَى الَّذِي يُحْرِكُهَا أَنَّى يَشَاءُ. وَمَضَتْ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ

تُغذى هذا السيد الجديد، وتصور لها أحمد سلطان وتعيد بطريقة بدأت تبلل لندن وتُلهم خيالها في ساعات وحدتها. ولكنها كانت أحياناً تشك في المرک، وتسبعد أن يكون أحمد سلطان قد غرق في حبها كما تدعى أم إبراهيم، وفي نوبة من نوبات ذلك الشك واجهت أم إبراهيم بهذا الرأي. ووجدت أم إبراهيم في تلك المواجهة أن الموضوع قد نضج، وأن لندن قد أصبحت الآن في حالة تسمح لها أن تقول: إن ما كنتيș مصدقاني اتأكدني بنفسك.

– إزاي؟

– قابليه.

– يا نهار أسود!

كان هذا هو جواب لندن في ذلك اليوم، ولم تشاً أم إبراهيم أن تُحرضها أو تتنبيها، بل وقفت على الحياد. كل ما في الأمر أنها ظلت تؤكّد لها أنها إذا أرادت هذا اللقاء فسوف يتم في السر تماماً ودون أن يتسرّب إلى أي مخلوق، وما عليها إلا أن تحضر إلى بيتها بأية حجة وترك الباقي عليها هي. ومنذ ذلك اللحظة لم تعد أم إبراهيم إلى الحديث في ذلك الموضوع بالمرة، بل حتى حديثها المعتاد لندن أصبح قليلاً نادراً لا تكاد تبدؤه حتى تنهيه. ترى آلاف الأسئلة في عيون لندن، أسئلة أرْتَتها بالتفكير فيما تعرضه أم إبراهيم، أسئلة تكاد تبرق بها ملامحها فلا تجيئها أم إبراهيم إلا بتجاهل مُدرب خبيث. بل انقطعت عن الذهاب إلى بيت مسيحة أفندي ومضى يوم واليوم التالي بلا خبر عنها، وبلغ القلق بلندن أشدّه وأرسلت دميان يستفسر فجأة دميان يقول إن أم إبراهيم مريضة جدًا تكاد تموت. وعلى الغداء طلبت من أبيها الإذن وأذن لها وهو فرحان، فأرسلت دميان يقول لها إنها قادمة لزيارتها بعد المغرب.

وها هي ذي لندن جالسة إلى جوارها، في فستانها «الجابوني» المفتوح يظهر جيدها وكتفيها ولا يُفلح حتى في إخفاء ما تحت إبطيها من شعر كان يبدو رغمًا عنها أصفر كثيفاً. كلما تطلّعت إلى الحجرة ورأتها مرتبة منتظمة وكأنها ليست مجهزة لزيارة ولكن مجهزة لاستقبال عروس، أحست لندن بقُشعريرة ما، قُشعريرة خوف، وكأنها خائفة أن يحدث ما تتوقع حدوثه فعلاً. وكلما نظرت إليها أم إبراهيم ورأتها مُعْتَنِيّة بزيتها اعتناء زائداً، وكأنها ليست ذاهبة في زيارة مريضة ولكنها استعدّت لما هو أكثر من ذلك، اقْشَعَّ جسد أم إبراهيم هو الآخر ودق قلبه بالفراحة، وكأن ما دأبت على السعي إليه طوال تلك الأيام يُخيفها أن يتحقق، وأن ينجح مسعها في النهاية.

وكان لا بدّ لحديث ما أن يدور.

ودار الحديث حول اكتشاف أم اللقيط، واكتشاف أنها متزوجة، وأنها حملت من وراء زوجها دون علمه. وتناسبت أم إبراهيم أنها مريضة واعتدلت تقص على لنده حكايات عن الترحيلة وبشاشة أخلاقهم، وكيف أنهم لا يتورعون عن ارتكاب أي جريمة أو خطيئة بلا خجل أو حياء وكأنهم ليسوا بشرًا، وكأنهم قطيع من حيوانات أو أغذام. وكانت لنده توافقها مُوافقات قلقة مُضطربة، وتوكد لها في نهاية كل موافقة أن الله حتماً سيفر لهم؛ إذ هم جهله لا يدركون ماذا يفعلون. وتصر لنده على حكاية الغفران هذه بطريقة تبعث الريبة في صدر أم إبراهيم، فتجعلها تُكَفُ عن الحديث وتُغَيِّرُ الموضوع.

وسألت لنده عن الشيخ «أبو» إبراهيم مشيرة إلى قفطانه المعلق على شماعة عند رأس السرير، فقالت أم إبراهيم إنه ذهب إلى العزبة نمرة ستة ليُحيي مولدًا هناك، وفعلًا، ولو كانت لنده قد صعدت إلى السطح وأصاحت السمع لرأة «كلوبًا» مُوقدًا بعيدًا في الناحية القبلية، ولجاجتها صوت الشيخ «أبو» إبراهيم وهو ممسك حلقة الذكر على الواحدة، منسجمًا مع الإمام البرعي في بُرْدته المشهورة.

وعاد الحديث إلى سكون كاد يطول، وكاد يُؤدي إلى جو الترقب والانفعال الذي سيطر على الحجرة منذ دخلت لنده، غير أنه لم يُطُل. سمعتًا دقة على الباب الخارجي المفتوح، دقة من يُعلم من في الداخل بقدومه.

وقالت أم إبراهيم بصوت متمارض ممدوه، وهي متأكدة تماماً من شخصية القادم: مين؟

وتحبب وجه لنده وبدأت مسامها تتحبب وشعرها يكاد يقف.

ودخل أحمد سلطان، طربوشة الغامق مائل على جبهته يكاد يخفي شعيرات حاجبه الأيمن، وجلبابه الحرير البلدي مكوي، والبالطو الأسود فوقه، وذقنه حليق والنور يُطل من وجهه، وشاربه مُقَصَّر ومُزْوَق، وقال بابتسامة واسعة مُدْرَبة، وكأنه لم يلحظ وجود لنده: مساء الخير يا أم إبراهيم، مالك؟

فأجابت أم إبراهيم بنفس تَصْنُعها: يسعد مساك يا أحمد أفندي، ما فيش! الظاهر إني باسقط ولا إيه ما أعرفش، مش تمسي يا أحمد أفندي.

وبلفة تمثيلية مُبَالَغ فيها انحرف أحمد قليلاً ورفع حاجبيه إلى أعلى وكأنه فوجئ وقال: الله! الست لنده هنا؟ مش تقولي يا أم إبراهيم.

وهمَ أن يستدير على عقبيه ويغادر الحجرة تأديباً، ولكنَ صوت أم إبراهيم ارتفع ومضى يُصر على بقائه قائلة: هو أنت غريب يا خوياء؟! ما غريب إلا الشيطان.

كل هذا ولدته جالسة في مكانها وكأنها في نَوَّامة، لا تستطيع أن تنظر ناحية أحمد سلطان، ولا ناحية أم إبراهيم، ولا في سقف الحجرة أو حتى في أرضها، وبدأ أن أحمد سلطان وكأنما استجاب للاحاح أم إبراهيم فتحنخ وتقدّم بضع خطوات، وقال بتلعلتم: اتبن باقول البيت منور ليه، مساء الخير يا لنده هانم.

وساد وجود قليل، وحركت لنده شفتها بلا صوت مع أنها أرادت أن تَرُد، وتداركت أم إبراهيم الموقف قائلة: يسعد مساك يا حبيبي، إلهي يخليك لشبابك وينولك أمانيك. ومد أحمد أفندي يده ليسلم على لنده. وارتبتكت لنده بُرْهَة لا تُرِي ماذا تفعل، ووَجَدَتْ أن خير ما تفعله أن تمد يدها هي الأخرى وتُسلِّمُ عليه، ولحظة واحدة هي التي استغرقها السلام، ولكن أي لحظة! يد أحمد سلطان بأصابعها الكبيرة الجامدة المجربة ذات الشعر، يد تعرف كيف تطمئن البنت البنوت وتأخذها، بأن تؤكَد لها أن آخر ما تريده هو أن تأخذها، يده هذه تمتد وتحتوي يد لنده، اليد البَصَّة الطرية المُرْتَجَفة ذات الأصابع الطويلة، يد الشرة التي نَضَجَتْ على شجرتها وبقيَتْ ناضجة حتى كاد يفوت أوانها، ناضجة تكاد من نضجها أن تسقط من تلقاء نفسها ودون أن يمسها أحد. يد ما إن التقى بها يد أحمد سلطان حتى أَحْسَتْ فيها أرض الواقع الصلبة، الواقع الذي تمقته، ولكنها تحيا فيه، الخبز الذي في حوزة اليد والذي هو — بلا شك — أجمل وأروع من لحم لا تراه إلا في الخيال، وصفوت خيال. وأحمد سلطان هذه يده غريبة عن نفسها وخيالها، ولكن فيها ذكرة، ذكرة تُحرِك في كامنها أشياء لم تتحرَك أبداً من قبل. لحظة واحدة استغرقها السلام، ولكنها جعلت راحة كف لنده الصغيرة تنضح عرقاً، عرقاً كثيراً إلى درجة أنها حين سحبت يدها من يده تساقط من راحتها سيل من القطرات.

وغير بعيد — عبر القنطرة الحجرية — في بيت فكري أفندي المأمور كان صفات ابنه يحاول النوم فلا يستطيع. وحين فَشِلَّ أَدَعِي النوم، فقد كان يعرف أن مُصيبة كبرى ستحل به عما قليل، ففهمهمة الحديث تأتيه عبر الصالة المظلمة من حجرة الجلوس، الحجرة التي استقبل فيها أبوه مسيحة أفندي من وقت قريب وهو يَعْجَبُ لتلك الزيارة المفاجئة في ذلك الوقت من الليل.

ولكن عجبه الآن لا بُدَّ أنه يزول، فها هي الهمة تصله فلا يسمع فيها إلا صوت مسيحة أفندي هو يتحدث بلا انقطاع، وسُعالُ أبيه وهو يستمع دون أن ينطق حرفًا. ها هي ذي فترة سكون تحل، لا بُدَّ أنه يريد فيها الخطاب. ألا سُحْقاً له والخطاب ولليوم الذي تحدث فيه عن لنده مع أحمد سلطان يوم عثروا على اللقيط.

فبعد الحديث هاجت في قلبه الأحساس، وتملّكه خاطر عاتٍ يهيب به أنَّ الأوّان قد آن ليبيوحة لنده بكل ما يُكُنُّ لها قلبه ويكشف عن أحاسيسه.

وفكراً واستغرق يومين في التفكير، ثم كتب ذلك الخطاب الملعون، كتبه بعد عشرات المسؤولات التي مَرَّقَها ولم تُعجبه صيغتها. وظل الخطاب في جيبي يومين، يتردد أحياناً في إرساله ويختار أحياناً أخرى في كيفية إرساله.

ثم فكر في محبوب هذا الذي أشاعوا أنه يرسل لها الخطابات عن طريقه، لماذا لا يستخدمه؟ واستبعط محبوب أول الأمر، ثم لما عرف تردد وحاف، وقال إنه حلف من يوم أن اكتشف خطاب امرأته معه ألا يحمل خطابات من هذا النوع. ولكن صفات ظل يُهدهد ويطمئنه ونفعه – بالرَّأْيِ. وبان على محبوب أنه قبل، ولكنه عاد وقال إنه يخاف أن يُضيّط معه الخطاب فيروح في داهية، وأقسم له صفات أنه سيكون مسؤولاً إذا حدث أي شيء. وإلى الآن لا يدرى صفات هل كان رضاء محبوب بتوصيل الخطاب رضاءً نابعاً من قلبه، أم كان رضاءً يخفي وراءه أخبار قصد، وإلى الآن لا يدرى هل هي فقط مجرد سذاجة من محبوب أن يذهب إلى بيت مسيحة أفندي ويسائل عن الست لنده من الباب للطاق، فيستوقف سؤاله انتباه مسيحة أفندي فيجذبه إلى الداخل ويُضيّق عليه الخناق ويُفْتَّشه فيعثر معه على الخطاب بكل بساطة. هل هي سذاجة من محبوب حين فعل ذلك، أم إنه الخبر، خبث ذلك الرجل الأمرد القصير الذي أبى أن يمثل دور رسول الغرام لأمر في نفسه، فكشف عن قصده – عن عمد – لمسحة أفندي، وأصبح ليس عليه بعد أن وجدوا معه الخطاب إلا أن يقول: وأنا مالي؟ سي صفات بيها هو اللي أمرني، وأنا عبد المأمور، ولبيت الموضوع اقتصر على هذا، ليت المصيبة كانت في الخطاب وحده. المصيبة الكبرى أن صفات – لشدة ما كان يعتريه من قلق على خطته – ظل يراقب بيت مسيحة أفندي من اللحظة التي سلم «محبوب» فيها الخطاب، ولم يُتَّح له أن يرى «محبوب» وهو داخل إلى البيت، فقد فوجئ بعد المغرب بقليل بلنده نفسها خارجة من البيت في أبهى حلة وأتم زينة. وأول الأمر اعتقد أنها ذاهبة إلى بيتهم هم في أمر ما، ولكنها لم تَعْبُر القنطرة الحجرية ولم تأخذ الطريق إلى بيتهما، ولكنها انحرفت ناحية العزبة، وظل هو يتبعها من بعيد ويُخْمِنُ قصدها، ولم يُتَّح له أنه يخمن طويلاً؛ إذ ما لبث أن وجدها تطرق باب بيت الشيخ «أبو» إبراهيم الفقي وتدخل. تُرِى ماذا تراها ستفعل في بيت الشيخ «أبو» إبراهيم؟ سؤال ظل يلُّحُّ عليه طويلاً دون أن يعثر له على إجابة ما، وأخيراً أقنع نفسه بأنها ذاهبة – لا بدًّ – لزيارة أم إبراهيم.

وهنا بدأت ملامحه تبرق وبدأ خاطر جنوبي يستبد به. الشيخ أبو إبراهيم في العزبة نمرة ستة يحيي المولد الذي هناك، ولنده الآن جالسة — وحدها — مع أم إبراهيم. أليست هذه فرصة جاءته من السماء على غفلة؟ وما الذي يحدث لو دخل الآن بيت الشيخ «أبو» إبراهيم مُدعِّياً أنه يسأل عنه مثلاً أو أنه يريد مناقشته في موضوع خاص والنقاش بينهما أمرٌ معروف؛ إذ كثيراً ما قضيا جزءاً كبيراً ساهرين عند القنطرة أو أمام دكان جندي يُناقشان المسألة الأَزْلِيَّة: الله وجوده والخيار والإلزام. والشيخ أبو إبراهيم يستمع لشوكه وحيرته بصدر رَحْبَ سَمْحٍ، ويطول بينهما النقاش ولا يتفقان. لماذا لا يدعي السؤال عنه ويدخل، وإذا عزمت عليه أم إبراهيم يجلس ولا بد أنه سيدور الحديث، ولا بد أنه سيجد فرصة ينفرد فيها بلنده ويخبرها بمكثون قلبه، وقد يُوصلها إلى بيتها بعد انتهاء زيارتها. ورغم وجاهة السبب ووجاهة الفكرة فقد ظل صفات مُتردداً، أحياناً يتحرك خطوات في اتجاه البيت فتخونه شجاعته ويتوقف وهو مُحرَّج أَيْمَانِ إِحْرَاج؛ إذ المكان الواقف فيه مكان مكشوف تَمُرُّ عليه الناس فيه وتحميه وتعجب والمسألة يلزمهها بعض التَّرْوِي والتفكير، فقدرته على مواجهة لنده قد انتابها ضعف كبير من اللحظة التي قرَرَ فيها أن يصارحها بحبه. وهكذا انتهى صفات ركناً من الشارع اختاره بجوار صومعة غلال قائمة تكاد تحيي — بحجمها الضخم — عن الأنمار، ومضى يقضم أظافره ويعمل فكره واضطرابٌ عظيمٌ قد تَمَلَّكه. وبينما هو كذلك رأى أحمد أفندي سلطان قادماً من أول الشارع بطربوشه ومعطفه اللذين لا تخطئهما العين. وازداد التصاقاً بالحائط واختفاءً وراء الصومعة حتى لا يراه أحمد سلطان فيعيّره بموقفه ذاك عدة ليال وسهرات. ولكن أغرب شيء أن أحمد سلطان لم يمر عليه؛ إذ قبل أن يصل إلى منتصف الشارع انحرف ودق باب الشيخ «أبو» إبراهيم المفتوح ودخل. قلب صفات هو الآخر دق في عنف وتوئلته حيرة عظمى كانت تحجب الرؤية عن عينيه. ولكنَّ عينيه ما لبثتا أن رأتا الباب، باب الشيخ تُحرِّكه يد نسائية من الداخل، ثمَّ ما لبث أن انصفق وانغلق. وتصاعدت الدماء في نافورة حارة إلى رأسه. وخرج من مخبئه وأسرع يلهث حائراً في اتجاه الترعة كمن لدغته — لِتُوَّهُ — حيَّة رقطاء. وألف شيء فَكَرَ فيه في تلك اللحظة.

فكرة أن يذهب ويحضر البنديقة ويقتحم البيت ويطلق عليهما طرفيَن دفعه واحدة. فكر في أن يسكت وينتظر؛ إذ ربما يكون الأمر قد حدث صدفة. فكر في أن يذهب ويطرق الباب بحُجَّة أنه يسأل عن الشيخ «أبو» إبراهيم ويفاجئهما بظهوره. فكر في كل شيء ولكنه كان دائمًا يجد نفسه عاجزاً عن أن يفعل شيئاً وكان إرادته قد أُصْبِيَت بفشل مفاجئ، ولم

تعد تستطيع إلا البكاء. ولكنه رفض أن يخضع لإرادته ويبكي، وفجأة وجد أن همه كله أصبح في أن يعثر على محبوب قبل أن يذهب بالخطاب فيأخذه منه؛ إذ لم تعد له حاجة به، ولم تعد تنفع إلا... خطابات.

ولكنه لم يجد «محبوب» وعيثاً حاول العثور عليه وكأن أهدافه من الحياة قد تبلورت كلها في العثور على محبوب. وحين فشل في هذا أيضاً أحس أنه قد أصبح يريد البكاء. وهكذا عاد إلى البيت وانهار فوق سريره يريد أن يبكي. ولكن البكاء استعصى عليه هذه المرة، وبقي راقداً مُفتح العينين كالجانين. إلى أن أحس ببابهم يدق وبمساحة أفندي يطلب مقابلة أبيه لأمر عاجل، ويقوم أبوه من النوم ويفتح حجرة الجلوس. ويجلس ومساحة أفندي، ويسمع بأذنه مساحة وهو يروي لأبيه تفاصيل ما حدث حين جاءهم محبوب يسأل عن المست لنه، وعما قليل سيأتي أبوه ويحاسبه الحساب العسير.

ظل صفات راقداً مُفتح العينين ينتظر اقتراب الخطوات التي يعرفها جيداً، خطوات أبيه، وهو مُستعد لمواجهته كل الاستعداد، وكأن لم يعد مهماً لديه – بعد ما حدث – أن يُحاسب على أي شيء وأن ينتمي بأية تهمة. ولكن خطوات أبيه حين اقتربت حقيقة وجد صفات نفسه يغلق عينيه ويدعى النوم. ووقف أبوه بباب الحجرة والمصباح في يده طويلاً، وكأنما هو مُتردد بين أن يوشه وبين أن يترك أمر محاسبته وعقابه للصبح. ويبدو أنه آخر – في النهاية – أن يترك كل شيء للصبح، فالصبح رباح.

ولكن فكري أفندي لم يستطع محاسبة صفات في الصباح؛ إذ استيقظوا فلم يجدوه، ولكنهم وجدوا خطاباً منه يقول فيه إنه ذهب ليبحث عن عمل في الإجازة في مصر بعيداً عنهم وعن التقفيش، وإنه لم يجد فائدة في مجادلتهم فهم حتماً سيغتصبون. ويقول في الخطاب أيضاً إنه آسف لأنه أضطر «لاقتراض» كل ما في كيس أمه من نقود ويُعد بردّها جمِيعاً حين يقبض أول ماهية، والمضحك أن الورقة التي كتب عليها الخطاب يبدو أنها كانت إحدى مسوداته لخطاب لنه؛ إذ كان في ظهرها كلمة حبيبتي مشطوبة ومعادداً شطبهما. ولم يفعل فكري أفندي شيئاً أكثر من أن قرأ الخطاب مرة أخرى ثم مَرَّقه وهو يحاول إخفاء رضائه عن هروب صفات، فالواقع أن صفات أسدى إليه معروفاً، وأراجه من مهمة محاسبته ومواجهته، وتلك – بالنسبة إلى فكري أفندي – كانت دائمًا مهمة عسيرة على نفسه وشاقة يتالم لها أضعاف ألم صفات منها.

أقيمت «ظلليلة» أخرى لعزيزه بجوار أم الترحيلة تماماً، إذ لم تَعُدْ ثَمَة حاجة لذهابها كل يوم مع الأنفار ما دام المأمور قد عرف ووافق على أن تُحتسب يوميَّتها وهي راقدة. وتكَفَّلت الظلليلة والمرأة الراقدة تحتها بلفت نظر الناس وتعريف من كان لا يزال لم يعرف بعُدْ بحكاية عزيزة. والحقيقة أن سلوك أهل التفتيش تجاه حكاية عزيزة كان سلوكاً غريباً. فأول الأمر كان همهم أن يثبت أن الفاعلة واحدة من الترحيلة. وحين ثبت هذا واطمأنوا، دفعهم حب الاستطلاع لمعرفة قصة هذه الفاعلة. وحين عرفوا القصة وأُشيع أن صاحبتها قد بلغت من المرض حد أن رقت في مكان الترحيلة أصبح كل همهم أن يروا تلك المرأة ويتأملوا كيف تكون وماذا تشبه. ومن أجل هذا كانوا يُقبلون جماعات وأفراداً، نساءً ورجالاً، حتى صبية وأطفالاً. كان القادم ليتفرج على عزيزة منهم يُدعى أنه في طريقه إلى الجُن أو ماكينة الري أو سارح إلى الغيط، وحين يرى الظلليلة يتلألأ، وكأنما قد استوقفه منظرها، ويروح يسأل وكأنما هو لا يعرف، ويُحَدِّق في المرأة الراقدة ويطيل التحديق.

كان هذا يحدث أَوَّل الأمر، ولكن بِمُضيِّ الوقت لم تَعُدْ هناك حاجة للادعاء، فقد كان من يري التفرُّج على عزيزة يقف – صراحةً – غيرَ بعيدٍ عن مكانها. ويظل مُنتظراً أن تستدير أو يخرج منها صوت أو تبدو لها ملامح. وبعد أن كان الناس يعملون حساباً لوجود بَلَدِيَّاتها الغرابية – إذا وُجدوا – أصبحوا يقفون للتفرُّج على عزيزة حتى في وجود الغرابية. وكانوا يفعلون هذا دون أن يتبدّلوا كلمة واحدة مع الغرابية، وكأن ليس لهم بهم دعوة أو صلة، وكأن عزيزة لم تَعُدْ منهم، وإنما أصبحت ظاهرة عَامَةً من حق الجميع أن يَرُوها ويَتَفَرَّجُوا عليها. وكان الغرابية يتقدّمون هذا الوضع بكثير من الاحتمال وضبط النفس.

غير أنَّ عزيزة بدأت تخرف وتصرخ صرخاتها المحمومة، ويَخْفِفُ إليها بَلَدِيَّاتها يحادثنها ويُصْبِرونها ويُهدهدون عليها وكأنها واعية عاقلة مُدركة لما تقول، حين بدأَت تفعل هذا بدأ الجمود يذوب، وبدأت ألسنة المُتَفَرِّجين من أهل العزبة تنطلق وتتحدث مع الغرابية، وتشارك بكلمة عطف أو بمصمصة شفة، ثم تجر الكلمة كلمات، ويبداً حديث بين الرجال والرجال والنساء والنساء.

ولكن عزيزة بعد ثلاثة أيام من رُقادها بدأَت تَتَشَنَّج، يَتَخَشَّبُ جسدها حتى يُصبح جاماً ناشفاً كالعصا وتَعْضُ لسانها حتى تُدمِيه، وكان أهل العزبة حينئذ لا يستطيعون أن يتمالكوا أنفسهم أمام منظرها فيسرون، مِثلهم في هذا مثل بَلَدِيَّاتها الترحيلة، ويتعاونون في فتح فمهما وتدليك جسدها وتنشيقها بماء البصل.

وأسلم التشنج عزيزة إلى نوبات هلعٍ مُفاجئٍ؛ إذ بدأَت تقوم بَغْتَةً من نومتها صارخة صاحبة، وتنطلق جارية إلى الخليج القريب وتُقذف بنفسها فيه بملابسها، وكأنها ت يريد إطفاء نار مشتعلة فيها. حينئذٍ كان يتعاون أهل العزبة مع الترحيلة في إخراجها من الماء وحملها وإرقادها في مكانها تحت الظلليلة، وفي تلك المرات كانوا يجلسون إلى جوارها في جماعات مختلطة من الغرابة وأهل العزبة، جماعات حين تهداً عزيزة ويطمئنون عليها تمضي تتحدث، ويبداً الحديث عن عزيزة وحالتها، وينتهي إلى الحديث، كُلُّ عن نفسه وأحواله.

وما أسرع ما انتقل التغير في لهجة الحديث عن عزيزة، فبعد أن كان الواحد من أهل العزبة يروي حكايتها للأخر وهو يكاد يتقرّز منها ومن حكايتها ومن الغرابة بشكل عام، أصبحت الحكاية تُحكى باختصار وكأنها أصبحت عيّناً، وكان في الإفاضة فيها حُدُشاً لحرمة حُرمةٍ وشَرْفٍ ناسٍ. حتى أولئك الذين كانوا يذهبون بُغية التفُرُّج على عزيزة قل عددهم وكادوا ينعدمون.

وحيث ازدادت شدة المرض تكاثفت الجهود تبحث لها عن البرشام الأصفر في كل بيت وعزبة، وأعطتها جندي قنينة خل بنصف الثمن، وذبَحَت لها نبوية — عن نفسها وعيالها كما قالت — أرنبيَّةٌ صغيرةٌ وطبختها وحملتها في حَلَّتها إلى أم الترحيلة كي تُطعمها إياها. وفعلت هذا بين دهشة أهل العزبة واستثارتهم أن تفعل نبوية الفقيرة العُدِمة هذا، ولكنها فعلته بكل شهامة، ولم يُقْلِلْ من شهامتها أنها حين استعادت الحلة غسلتها بالتراب والطين وشَاهَدَتْها سَبْعَ مَرَّاتٍ قبل أن تعود وتستعملها.

وهكذا، وحول مرقد عزيزة وظليلتها، بدأ اختلاطُ ما يحدث بين أهل العزبة والترحيلة، كان اختلاطًا مُتحفظًا أول الأمر وفي حدود، ولكن أهل العزبة اكتشفوا — من خالله — أن الترحيلة لهم بلاد هم الآخرون، ويعرفون مثلهم في الفلاحة ويفلحون، ولهم أيضًا بيوت وقرىبٍ وعماتٍ وخالاتٍ وبينهم مُشاحناتٍ وخلافاتٍ، ولهم من الرئيس شَكَاوى ومن المأمور والإدارة والتفتيشِ شِكَاياتٍ.

وهكذا أيضًا راح أولاد العزبة يلعبون مع أولاد الترحيلة — عيني عينك — أمام الآباء الذين كانوا لا يمنعونهم من اللعب معهم، ولكنهم فقط يوصونهم ألا يدعوا أولاد الترحيلة يتَنَفَّسُونَ في جوهرهم؛ إذ من الجائز أن يكون في أنفاسهم «ميكروب».

ورغم أن فكري أفندي — في تلك الأثناء — كان مشغولاً مشغوليةً كبرى على ابنه، مع أنه لم تكن تلك أول مرة يترکهم فيها صفوتو ويذهب إلى مصر مُدْعِيًّا البحث عن عمل في

الإجازة، إلا أنه كان فقط يريد أن يطمئن على مكانه؛ إذ إن النقود التي أخذها كان لا يمكن أن تكفيه، وكان لا بد أن يرسل له نقوداً أخرى تكفيه.

ولكن على الرغم من مشغوليته الكبرى هذه فقد كان مشغولاً أيضاً بعزيزته، وهو نفسه لا يدرى لماذا منذ أن عثر عليها أصبح يُحس وكأنه مسئول عنها، وكأنما كان يبحث ليعثر عليها ويصبح مسؤولاً عنها، كان في ذهابه إلى الغيط يمر على مكانها، ولا يفعل شيئاً أكثر من أن يقف على رأسها ويراهما وهي تترعرع في فراش القش وتتعمق بكلامها غير المفهوم. كان يقف قليلاً هكذا ثم يمضي عنها وهو يتصرف، فلم يكن يستطيع أكثر من هذا؛ إذ إن عرضها على طبيب المركز أو إرسالها لستشفى الحميات مسألة محفوفة بالمخاطر، قد يُكتشف أثناءها أنها الوالدة، وبالتالي القاتلة، وتكون الكارثة، كارثة لن تصيبها فقط، ولكنها ستصيبه هو الآخر باعتباره علم بالأمر وتستَّر عليه ولم يُبلغ السلطات. كلُّ ما استطاعه هو أن يأمر الأسطى زكي حلاق التفتيش الذي كان يشغل مركز حلاق الصحة ويزاول الحلاقة وظهور الأطفال ووصف الأدوية لتنمية الباه وإعادة الشباب وعلاج الحُمَّى، يأمره في السر – وكأنما يخاف أن يضبطه الناس في لحظة ضعف وعطف – أن يتولى علاج عزيزة ويراسبه. ورغم أنه تولى علاجها فعلاً، بعمامته البيضاء التي يرتديها فوق طاقته البيضاء أيضاً وذئنه الحليق وشاربه الحليق والناب الذهبي الذي يتلألأ في فمه، رغم أنه تولى علاجها إلا أن حالتها لم تزدد إلا سوءاً، حتى بدأت تتكرر نوبات إلقاءها لنفسها في الخليج، وحينئذٍ أمر فكري أفندي الرئيس عرفة بأن تبقى أم الحسن جارتها معها لحراستها ولا تسرح الغيط وتحتسب يوميتها.

ومسألة أخرى ظلت سرّاً لم يعلم بأمره مخلوق. فالمودة بين مسيحة أفندي الباشكاتب وفكري أفندي المأمور كانت مفقودة بالمرة، ولم يفعل الخطاب الذي ضبطه مسيحة إلا أن زاد الطين بِلَّة. ومن تلقاء نفسه كان مسيحة أفندي يتحين الفرصة ليمسك على المأمور خطأ ما، ويدبه عريضةً ينسخها الشيخ إبراهيم بخط يده ويرسلها باسم مستعار إلى الدائرة في مصر. وقد وجد مسيحة أفندي في احتساب يومية عزيزة وجارتها فرصةً مُواتيةً هبطت عليه من أبواب السماء الواسعة. وبعد أن تأكّد من أنّه سلطان أنّهما مُقيّدان فعلاً في دفتر اليومية، سَهَر ليلةً بأكملها يُدِبِّج عريضةً طويلةً بهذا المعنى متهمًا المأمور بأنه يُزُود في عدد الأنفار ويقتسم الفرق مع المقاول، ويُزور في «شاليش» اليومية، وأن الشاهد على ذلك حيٌّ موجودٌ، وما على جانب الخواجة إلا أن يرسل المفتش ليتحقق بنفسه مما ذُكر. وبعد أن اطمأن مسيحة أفندي إلى لهجة العريضة، وضعها في كيس المُخدّة تمهيداً لإعطائهما في الصباح للشيخ «أبو» إبراهيم ليننسخها ويرسلها.

وحين رقد مسيحة أفندي أخيراً والعربيضة قد أصبحت في كيس المخدّة تحت رأسه، بدأ بعض التردد ينتابه، لماذا؟ لم يكن يدري. إنه لم يتعدد أبداً في إرسال أية عريضة من قبل، فلماذا يتعدد الآن؟ ولماذا يُحس ببعض الخجل وصورة الظلّيله الراقدة تحتها عزيزة تراود خياله وصراخها وتخريفاتها تَطِن في رأسه وتشير إليه وتحاصره؟

وحين استيقظ في الصباح تردد بين أن يأخذ العريضة وبين أن يتركها، وأسلمه التردد إلى أن يسأل دميان قائلاً - دون أن يُعرّفه بشيء عن موضوع سؤاله: آخذها ولا أسيّها يا دميان؟

وبَلَّ دميان إصبعيه وفرَّد كُمَّه ورفع رأسه إلى السقف وقال: سببها يا خويا ربنا يسَّهل لك.

وبَقَيَت العريضة مَطْوِيَّة في كيس المخدّة.

ظللت عزيزة راقدة في تلك البقعة المكشوفة التي تصليها الشمس بنارها صباح مساء، لا يُفلح سقف الظلّيله الرقيق المملوء بالثقوب في دفع وَهَج الشمس عنها، ولا ينفع فيها صب الخل أو تدليك الجسد أو علاج الأُسطى زكي الحلاق. ظلت عزيزة وأزيز الحُمَّى في جسدها تكاد تسمعه جارتها أم الحسن وتحس به كلما أمسكت يدها. الذباب يعف عليها والعرق يكسوها وفترات غيبوبتها تطول وتعتمق. بل انقلب تخريفها آخر الأمر إلى صراخ. إذا أفاقت من غيبوبتها لا تكاد تفتح عينيها وتقول لها أم الحسن: إزيك يا أختي دلوقتي؟ حتى تدب على صدرها بكلتا يديها وتقول: يا لهوي! ثم تأخذ في لطم خدودها وتمزيق ثيابها ولحمها بأظافرها رغم كل مجهودات جارتها - ومن يتصادف مروره أو وجوده - في محاولة شُلّ حركتها وتكليف يديها، فلا تزيدها محاولات إيقافها إلا ثورة وهياجاً، ولا تكف عن تمزيق نفسها إلا حين تهوي مرة أخرى في سراديب الغيبوبة.

ولم تعد الظلّيله تلك السُّبَّة في جبين الغرابوة يحاولون إخفاءها وصرف الأنظار عنها. فحين عُرفت الحكاية على أوسع نطاق وتمت إشاعتها بكل دقائقها وتفاصيلها لم يعد هناك ما يُخجل له الغرابوة، أصبحت شيئاً مثل لغتهم وفقرهم واحتياجهم لا يحالون إخفاءه أو التستر عليه. وأهل التفتيس أيضاً، أولئك الذين كانوا يتداولون حكايتها في السر وبإحساس من يتداول حراماً أو أمراً مُخجلـاً، أصبحوا يتحدثون عن الموضوع وكأن لم يُعد فيه ما يدعو للخجل. تَحَوَّل اهتمام الكل من حكاية عزيزة إلى عزيزة نفسها، عزيزة المريضة المسورة التي تتعدّب، حتى أصبحت الظلّيله التي ترقد تحتها وكأنها قبة شيخ،

الفائت لا يمكن أن يمر دون أن يلقي نظرة، ليست نظرة حب استطلاع أو تَشَفُّ ولكن نظرة عطف ومشاركة، نظرة من يَوْدُ لو كان باستطاعته أن يفعل شيئاً لِيُخْفِفُ عن تلك المسكينة المحمومة المُعَذَّبة.

تحول اهتمام الكل إلى عزيزة، وتحولت عزيزة إلى ذئبة ضاربة فاقدة العقل إذا أفاق، جُنَاحَةُ هامدة لا يربطها بالحياة إلا تلك الحرارة المريضة التي تتلاعث منها إذا غابت عن الوعي.

إلى أن جاء اليوم العاشر.

ومن أوله استيقظت أم الحسن فوجَّدت بواحد التحسن بادية على عزيزة، حرارتها قد انْخَفَضَتْ كثيراً عن ذي قبل، وعيتها مفتوحةان بلا غيبوبة ولا هَذِيان، وأنفاسها تتردَّد بطبيعة في صدرها، ولكنها منتظمة وممتلئة، وفي الضحى انفرجت شفتا عزيزة، وأصاحت أم الحسن أسماعها ولكنها لم تستطع أن تلتقط شيئاً من بين الشفتين المنفرجتين، وأخيراً — وبعد بذل المجهود — استطاعت أن تتبين أن عزيزة تقول: أشرب! وقامت أم الحسن من فورها هالعة، وأحضرت لها كوز ماء من زَلْعَتها وقربته من فمها، وشربته عزيزة على دفعات، ولكنها أتت عليه كُلُّه. وسألتها إن كانت تريد ماء آخر؟ وانفرجت شفتا عزيزة وقالت بكلمات واضحة هذه المرة: أشرب، وجَّرَتْ أم الحسن وأحضرت كوزاً آخر شربته عزيزة، وما لبست أن أغلقت عينيها وبدا أنها ستنام ذلك النوم الذي حُرمت منه طويلاً.

وانبَثَتْ فرحة غامرة في صدر أم الحسن وهي تتحسَّس جبهة عزيزة فتجدها وكأن حرارتها قد أصبحت طبيعية، وتجدها نائمة لا يكاد يفرقها عن الأصحاب إلا ذلك الشحوب الشديد الذي يصبح وجهها.

وفي الظهر، في عز الظهر، تلك الفترة التي تقف فيها الحياة تماماً ويتوب الناس إلى غداء يسلمهم إلى غفوة لا يفيقون منها إلا في طراوة العصر، في الظهر فتحت عزيزة عينيها فجأة، وكأنها لم تكن نائمة، وانفرجت شفتاها وقالت شيئاً. وأدركت أم الحسن أنها تريد أن تشرب، وطلبت من ابن الرئيس عرفة الصغير أن يذهب ويملاً لها الكوز من زَلْعَتهم فقد فرغت زَلْعُتها، وذهب الولد بالكوز الفارغ. في تلك اللحظة فوجئت أم الحسن بعزيزه تعتدل وتقفز جالسة، ثم تطلق صرخة عالية مُدْوِية ما لبست أن أعقبتها بصرخات هائلات مُدْوِيات. وقبل أن تستطيع أم الحسن أن تُدرك أو تعي ما يحدث، وقفزت عزيزة وهدمت الظليله، وما لبست أن انطلقت تجري ناحية الخليج وهي تصرخ. وبلاوعي، تَعْنَثُها أم الحسن وهي تجري هي الأخرى وتصرخ وتستغيث بالناس، مخافة أن تكون عزيزة انتوتْ أن

تُلقي بنفسها في الخليج كما كانت تفعل. وعلى صرخاتها جاء الناس من كل مكان، من العزبة ومن الجُرن ومن فوق ماكينة الدُّراس، جاءوا هالِعين يرون ما هنالك. وقالت لهم أم الحسن: الحقوها ح ترمي روحها في الخليج، وجرى الناس يحاولون منعها، ولكنها انهالت عليهم عصاً ورفساً ونُشِّب أظافر بطريقة مجنونة مُتوحشة لم يملكوها معها إلا التراجع، ولكنها لم تُلقي نفسها في الخليج. انطلقت تجري حتى وصلت إلى نفس المكان الذي وجدوا فيه اللقيط، والذي كانت لا تزال فيه آثار الدماء سوداء جافة.

وبين دهشة المُلتفين حولها وذهولهم جلست عزيزة القرفصاء على حافة الخليج، وكانت تتهدأ للولادة، وانطلقت من فمها صرخات متواتلات وكان الطلق اشتد عليها، ثم عَسَّعَتْ يديها حتى عثرت على عود الصفصاف الذي احترق نفسه والذي كان لا يزال في مكانه من الحافة، وأَطْبَقَتْ عليه أسنانها، واتَّخذَتْ هيئتها طابعاً جنونياً مذعوراً وهي تضغط على العود وتنشب أسنانها فيه. وظلت تضغط بتوحش وتضغط وهي تدمدم بأذين محبس كاسر والدم يسيل من فمها وأسنانها فيلُوت العود، وعيناها جمرتان متوجهتان، وشعرها منكوش كشعر الجَانِ، ويداها تعصران طين الخليج فتحيلانه إلى تراب جافٌ. وفجأة. وكان شيئاً طَقَّ في داخلها تهافت مُمَدَّةً على حافة الخليج لا حراك بها.

حدث هذا كله في دقائق قليلة، والناس مشدوهون مذهلون قد جَمَدُهم ما يحدث في أماكنهم، ولم يبدعوا يتحركون إلا حينما انهارت عزيزة، وحين أسرعوا إليها يتحسّسونها وجدوها قد ماتت.

وتصاعد من الرجال جَئِيرٌ عَرِيْضٌ يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله، ونهنَّهَت النساء القليلات الحاضرات، وبكت أم الحسن بحرقة وهي تحاول — مُسْتَعِينَةً بالرجال — أن تُخَلِّصَ عود الصفصاف من بين الفَكَّين الميتَيْن عليه. أما ابن الرئيس الصغير الذي كان قد جاء بالكوز ممتلئاً لشرب منه عزيزة، فقد عاد به إلى عُشَّهم، ولكنه توقف بعد قليل واستدار ناحية الخليج وألقى فيه بالكوز ولم يلبث أن تصاعد بكاؤه.

ولم يصل الخبر للترحيلة في الغَيْط إلا بعد الغداء، ولم تستطع جهود الرئيس أو خَوْلَة التفتيش أن تُوقِفَ ما حدث لهم حين سمعوا الخبر. فقد دَبَّ الاضطراب في صفهم الطويل، وحين انهالتِ العصيُّ الخيزران فوق ظهورهم تأمرهم بمواصلة العمل اعتدَلَتِ الظهور لأَوَّل مرة، واستدار أصحابها يواجهون الخَوْلَة والسواقين بعيون مفتوحة لا تَطْرُفُ، ونظرات

تُنذر بثورة لا يعلم سوى الله مداها، ثورة الصامتين الذين طال بهم الصمت والصبر، والغريب أن الخَوْلَة والسائلين حين رأوا تلك النظارات بدعوا يغيرون طريقتهم في الحال، فكفوا عن الإهانات والخيزرانات وبدعوا يتحايلون ويسوقون الرَّجَاوَات، قائلين: إنَّ عيشهم مُعلَّقٌ بما سوف يحدث، وإنَّمَا غَلَبة وأصحاب عيال. وانتهى العمل قبل موعد انتهاء المعتاد بأكثر من ساعة، وعاد أنفار الترحيلة يتسابقون على المشَّايات ويستعجلون إنتهاء الطريق.

وفي المساء حَفَلَ مكان الترحيلة الكائن خلف الإصطبل بعدد كبير من الناس لم يشهد له مثيلاً. فقد جاء الفلاحون من العزبة الكبيرة والعزب الأخرى، وجاءت معهم بعض نسائهم، جاءوا يُعْزِّرون الترحيلة تعزية الرجل للرجل والنند. وكانت عزيزة قد وُضعت في المكان الذي رَقَدَتْ فيه أثناء مرضها وُغُطِّيتْ بكيس من أكياس القطن التي كانت تُسْتَعمل لهز الدودة، والتَّفَ حولها نساء الترحيلة ومن جاء ليعزِّيْهم من نساء العزبة، بعضهن يبكي في صمت، وبعضهن يُعَدَّ على عزيزة ومتتتها في بلاد الغربة بعيدة عن دارها وزوجها وأولادها، وبعضهن يتحدث ذلك الحديث الذي لا يحلو للنساء إلا في المأتم والجنازات، حديث تحكي فيه المرأة من العزبة للمرأة من الترحيلة أو المرأة من الترحيلة للمرأة من العزبة عن وكتتها وميلة بختها مع زوجها المُقْسَر وبثوبها الذي لا يصرُّ حفان ملح من كثرة ما به خروق وثقوب، وأولادها الأشقياء وبنتها التي يجري عليها عريض عنده فَدَانَانَ.

أما رجال الترحيلة فقد جلسوا غير بعيد في مقدمة الجُرْنِ يتقابلون عزاء رجال التفتيس، وقد اختلطت العجم بالعجم والجلاليب بالجلاليب فلم تعد تستطيع أن تميز الفلاح من الترحيلة ولا صاحب المأتم من المُعْزَى. بينما الشيخ أبو إبراهيم الفقي قد احتل دكة النوارج الواقفة على «رمية» قمح نصف مدروس، ومضى يتلو بقصته الأَجْشُ المَبْحُوح بعض ما تَيَسَّرَ من سورة النساء، والشمسُ قُرْصُها يَحْمُرُ ويغيب خلف كومة التُّبن الهائلة المُتَخَلَّفة عن دراس المكنة.

ودُونَا عن الجميع كان دميان – في ذلك الوقت – يحوم حول بيت المأمور بلا سبَّتْ مُعلَّقٌ في ذراعه منتظراً ربما أن تُطلَّ السُّتْ أم صفوتو من البلكونة ليحادثها، ولكنها لم تُطل؛ إذ كانت في ذلك الوقت جالسة على كنبة الصالة وأمامها جَلَستْ على الأرض بنت من الترحيلة تُدَلِّك لها قدميها وتحكي لها عن عزيزة وزوجها وكيف يعيشون في البلدة.

ظل دميان يحوم حول البيت ويتربّد، إلى أن واتته الجرأة فدخل من الباب الخلفي الذي يؤدي إلى الحوش والمطبخ، دخل وهو يزعّق: يا سُتْ أم صفوّت، يا سُتْ أم صفوّت، مش عايزه أقري لك الفنجال؟

يُزعق بنفس طريقة ونفس صوت الرفيع الذي يشبه صوت الأطفال ولكنه كان
يُشعر لحظتها ببرحة غريبة عليه وعلى دميان.

وبعد دقائق كان دميان يغادر بيت المأمور من بابه الأمامي مطروداً هذه المرة ملعوناً أبواه، وظل يمشي على غير هدى إلى أن وصل إلى الجُرن حيث الجمع الكبير المحتشد، وتردد — بُرهةً — بين أن يذهب إلى حيث الرجال في الجُرن أو إلى حيث النساء حول عزيزة في مكان الترحيلة. ويبدو أنه خاف من جمع الرجال؛ إذ ما لبث أن توجه إلى حيث النساء مجتمعات حول عزيزة. وبكى دميان في ذلك اليوم بحرقة حتى كاد يُضحك — بحرقه النساء.

وأمام مبني الإدارة، وعلى بعض كُراسيّ قديمة متناثرة مُعظمُها قد سقط خوص قاعدته كان فكري أفندي المأمور جالساً وحوله مسيحة أفندي وأحمد سلطان والأسطى محمد والشيخ عبد الوارد الكبير والمخزنجيُّ ورئيس الخولة، ومن بعيد كان يرقب جلستهم بعض الفلاحين الذين يؤثرون التطفُّل وتَسْقُطُ الأخبار والعلم بكل ما يدور في التفتيش من أمور. وكان المأمور يتدارس مع الرجال المجتمعين حوله الحل الذي انتهى إليه في أمر عزيزة. فقد خلقت له عزيزة بوفاتها مشكلة لم تكن تخطر له على بال، إذ هو لا يستطيع الإبلاغ عن وفاتها أو دفنتها في التفتيش فسوف يتطلب الإبلاغ كشفاً يُوقَّع على المُتوفَّاة، ومن يدرى ما يمكن أن يؤدي إليه الكشف من تَسْرُّت على جانية وتحقيق وسین وجيم. ولم يكن هناك من حل إلا أن تُرسَّل — إلى بلد़ها، وهناك يتكلّف الحاج عبد الرحيم مقاول الترحيلة بأمرها، فهو المُسْئُلُ الأوَّل والأخِيرُ عن أُنفَارِه وحياتِهِم، ولا بد أن يكون أيضًا مُسْئُلًا عن موتهِم، فيمكّنه أن يتفق مع عمدة بلدَه — وهو صاحبه وقربيه — على الإبلاغ عن وفاتها باعتبار أنها لم تكن في الترحيلة أو كانت هناك ثُم لما عادت مرضت وماتت في بيتها. أو يمكنه أن يصنع أي شيء آخر يُخْلِي التفتيش والمأمور من المسئولية. مُمْكِنُ أي شيء ولكن الشيء المُحْتَمَلُ الذي لا يُدْعَ منه هو أن تُنْقَلْ حُثَّةً عزيزة إلَى بلدَها.

ونقلها هو المشكلة التي ظلت تحير فكري أفندي طويلاً حتى عثر لها على حل، وكان الحل في عربة التفتيش اللوري التي تذهب كل خمسة عشر يوماً إلى بلد الترحيلة لتحضر

لهم زوادتهم من عيش غرباوي وجينة وبصل وعدس ومش. ولم يكن ميعاد ذهاب العربية قد حل، ولكن تقديم هذا الموعد ليس بالأمر الخطير غير المستطاع.

وكان المأمور قد أرسل في طلب الأسطى عبده سائق اللوري وأخذ يُفهمه بلهجة جادة – تَعْمَدْ أن تكون لهجة أمر – لا تسمح للأسطى عبده بالتحجُّج أو التهرب، يُفهمه مُهْمَّته، وما يجب عليه عَمَلُه. وأبدي الأسطى عبده بعض التردد وأثار بعض الاعتراضات، تكفل الأسطى محمد العجوز بالرد عليها جميعاً. ولم تَبْدُ على ملامح الأسطى عبده الموافقة النهائية إلا بعد أن تعهد له المأمور أنه سيكون مسؤولًا مسؤولية تامة لو حدث شيء – لا قدر الله. وحينئذ – فقط – أرسل الأسطى عبده طاقيته الصوف الطويلة وجبابه، اللذين يرتدبهما في العادة، أرسلهما إلى بيته طالباً من امرأته أن تبعث له بالبدلة الكاكي التي يرتدبها حين يسافر. ثم مضى إلى الجراج يُعد اللوري للرحلة الطويلة التي عليه أن يقطعها على سِكِّ مُتَّبِعَةٍ غير مُمَهَّدة لكي يَبْعُدْ – قَدْر طاقتة – عن عساكر المرور وأكشاكهم.

وحين أُعدت العربية وتم كل شيء كان الظلام قد خَيَّم، وكان ميعاد ذهاب أنفار الترحيلة إلى الغَيْط قد حان، إذ كانت اللطَّاع قد فَقَسَتْ في العزبة نمرة عشرة وكان الأنفار يعملون بالنهار في التقاط اللطَّاع ويسرحون بالليل – لِقاء أجرة ثانية – لهز أشجار القطن وجمع الدودة من فوق أوراقها، الدودة التي تختفي في النهار في شقوق الأرض ولا تبدأ زحفها الفاتك إلا في الليل.

وكانت عملية الْهَزْ تَتَمَّ في وسط أنوار الْكُلُوبَاتِ الساطعة، والعمل فيها يبتهج له الأنفار أكثر؛ إذ هو عمل في الليل حيث الجو معتدل ولطيف وحيث الأغانى، والنور الساطع، والظلام الذي يتيح بعض اللعب، يتيح لِلَّيدِ الْحَشِنةَ أن تمتد إلى الجارة ويتبع للجارة أن تتعابى وتسكت.

كان الأنفار يسعدون بالعمل في الليل رغم كل شيء، ورغم أنهم كانوا يعملون أيضًا في النهار، ولا ينامون سوى تلك السُّوَيْعَاتِ القليلة التي يختلسونها ساعة الفجر وساعة الغروب، ولكنه عمل بأجرتين والجسد المُرْهَق ليس مشكلة، المشكلة في القرش والفرصة التي جاءت من السماء لاقتناصه واستخلاصه.

كان ميعاد ذهاب الأنفار للغَيْط قد حان، ومع هذا أَبُوا ورفضوا أن يتحرکوا – قيد أُنْمَلَة – إلا بعد أن يُودُّعوا عزيزة الوداع الأخير.

وحانت اللحظة التي كان على عزيزة أن ترحل فيها، وجيء باللوري وهو يجأر ويتراءج به الأسطى عبده إلى الخلف، ويزجر الأطفال الذين تعلقون بجوانبه ويلعن

آباءهم ليستطيع أن يصل إلى أقرب نقطة من المكان الذي ترقد فيه عزيزة، ووقف الرجال وأجمن متزاحمين حول اللوري، وما كاد يرتفع صرخ النساء حتى هب فيهنَّ المأمور طالباً السكوت التام مُهدِّداً بكسر عنق الواحدة منهم لو فتحت فمها، فالعملية كان يجب أن تتم بهدوءٍ وبلا إعلانٍ أو فضيحة.

وعلى ضوء كلوب جنيدى الباht الذى كثيراً ما كان يَشحر ويختنق نوره، لفت عزيزة بالكيس الذى كانت تتغطى به، وتبرع الشيخ عبد الوارث بحصیرٍ باٍل من عنده لُف فوق الكيس، ثم حُملت الجثة ملفوقة بالحصیر بين نهنهة النساء وصمت الرجال الواجم، ووُضعت على أرض صندوق اللوري الخشبية. وجُمعت كل القُفف والزَّلع والبلايلص الفارغة من الترحيلة – وعلى كل منها علامة ليُعرف صاحبها، جُمعت ووُضعت فوق الجثة لتداريَّها وتُخفيَّ معالها، ثم صَبَّدَ الرئيس عرفة إلى العربية وصَبَّدَ معه بعض أنفار الترحيلة من الرجال، وتصاعدت صرخة من أم الحسن طالبةً أن تذهب معهم، فالمُتوفَّة حُرمة وكلهم رجال، وليس أجرد منها بالمحافظة عليها، ولم تُغلق فمها إلا حين حُملت إلى اللوري ووُضعت فيه. وعبد المطلب الخفير أصر على أن يُرافقهم ليُشَيَّع عزيزة إلى مقرها الأخير. قائلًا إنه لا يمكن أن يترك الأسطى عبده يذهب وحده في تلك المهمة الخطيرة. وأخيراً قال فكري أفندي المأمور لعبدة بأنفاس متهدجة: اتوكل على الله يا أسطى.

وقال الأسطى عبده وهو يجذب عصا «الفيتيس»: توكلنا على الله، الفاتحة. وانسل اللوري وقد تعلَّى صوت ماكينته من بين مئات الرجال والنساء المُتجمهرين، الذين لا يضيء وجوههم الشاحبة إلا كُلوب جنيدى الشاحب، والذين لم يتمالك بعضهم نفسه فانفلت صوته – رغمَّ عنه: مع السلامـة يا عزيزة، مع السلامـة.

وبعد قليل كانت العربية قد استوت على الطريق الزراعي الكبير الذي يَمُرُّ بحذاء شريط الدلتا، السائق صامتٌ واجمٌ يُدْخِن السيجارة التي عزم عليه بها الرئيس عرفة، وعبد المطلب بجواره صامت هو الآخر وواجم. أما من في صندوق العربية فقد كانوا جالسين مُتشبِّثين بحافة الصندوق وكأنهم يَتَحَاشُون الجلوس فوق إِبْرٍ حادَّة، كلما هَرَّتْهم العربية تَشَبَّثُوا بالحافة أكثر مُحاوليـن – قَدْر الطاقة – أن يَبْتَعدُوا عن كَوْمَة القُفَّف والبلايلص التي ترقد تحتها المرحومة.

وبينما العربية تئُرُّ وتمايل بِحُمولتها، وأزيزُها المكتوم تحمله الرياح وتتشرّبه — على مهل — كُلَّ الظلم الهائلة الرابضة على صدر الكون، كان خط أنفار الهز قد انتظم تحت ضوء الكلوبَات المعلَّقة على عروق طويلة والعصا الخيزران قد بدأَت ترتفع وتهوي على الظهور المحنَّية، بينما أصوات الخَوَّلة والسواقين تصرخ بنبرات متقاربة متلاحقة: وَطِي يا ولد، وَطِي يا بنت.

خاتمة

وانتهى العام ورغم كل شيء كُلّتْ جهود فكري أفندي بالنجاح وهُزمت الدودة رغم فُقْسها، وسَلِمَ المُحصَول، وعاد الغرابة إلى بلادهم.

وحين جاء العام التالي على التفتيش، وجاء الغرابة كان الفلاحون لا يزالون يذكرون بعضاً مما حدث لعزيزتها وحکايتها، ولكن الحاجز الذي كان قائماً بينهم وبين الترحيلة كان قد زال نهائياً وإلى الأبد، وأصبح من المعتاد أن يسهر رجال الترحيلة مع أهل العزبة في بيوتهم، وأن تختلط النساء بالنساء، بل حدث ما هو أكثر من هذا؛ إذ تزوج سالم أبو زيد أحد «كُلَّافَة» التفتيش ببنت غرابة راقت في عينه فخطبها، ثم ذهب إلى بلدها حين عادت في جَمِيعِ من فلَاحِي التفتيش ليَخْطِبُها من أهلها وعادت عروسه.

ولم يشهد العام التالي فكري أفندي مأموراً للتفتيش، فالخواجة زغيب كان قد باعه حقيقة للشركة البلجيكية التي عيَّنت له مأموراً كالخواجات من عندها، وإن كان قد عُرِفَ – بعد هذا – أنه تركي ومسلم، ولكن له شكل الخواجات وهبَّتهم، ولكن الشركة والمأمور الجديد لم يدوماً طويلاً أيضاً؛ إذ ما لبثت الشركة أن باعت الأرض للأحمدى باشا حين عرض عليها ثمناً مناسباً بلغ ربعها فيه آلاف الجنيهات، وقلب الباشا نظام المزارعة – الذي كان سائداً في التفتيش – إلى نظام الإيجار على بياض ووضع هو فيها ما شاء من شروط. ولم يُفاجأ الناس حين أصبحوا – ذات يوم – فوجدوا أَحْمَدَ أَفْنَدِي سلطان قد قدَّم استقالته من عمله وغادر التفتيش، وقيل إنه وجد وظيفة كاتب في مكتب أحد محامي المُختلط في طنطا، لم يُفاجأ الناس لعلهم أن أَحْمَدَ سلطان كان على الدوام ضيقاً بالعمل في التفتيش معتبراً أنه يُضيّع عمره وشبابه فيه برخص التراب. الناس فوجئوا – حقيقة – حين اخترت السُّلْطَانُ لذاته ذات يوم، وجُنَاحَ مسيحة أفندي وهو يطوف البلاد طولاً وعرضًا ويبحث عنها، وزالت المفاجأة وانكشف السر حين عرف أنها ذهبت لتتزوج

من أحمد سلطان، وأن الزواج تم في مركز البوليس، وأن استقالته واحتفاءها وكل شيء تم باتفاق بينه وبينها. وأضاف ما حدث إلى عمر مسيحة أفندي عشرات الأعوام، فشاب معظم شعره وأصبح لا يهتم بنظافة ثيابه أو وضع المنايد لتحمي ياقته من عرقه، وقاطع لندن وزوجها وألى على نفسه وأولاده وزوجته ألا يعرفوها أو يروها أو تأتي سيرتها على ألسنتهم. ولكن الأيام — آه من الأيام — ما لبثت أن جعلته يغفر وينسى، ويرد على الخطابات الكثيرة التي ظلت لندن ترسلها إليه كل أسبوع بخطاب مُتزمِّت مُقتضب ولكنها يبدأ بتلك العبارة: ابنتنا العزيزة لندن.

ومضت الأعوام تشهد خلافات من نوع جديد تنشب بين الفلاحين الذين أصبحوا مُستأجِرين وبين الأحمدى باشا، محاكم ومحضرات وحجوزات، وحراس على البهائم والمنقولات، وبُيوعات بالمزاد العلني، وحرائق كيدية في سواعي التفتيش ومكنته ومحاصيله. وقامت الثورة، وصدر قانون الإصلاح الزراعي، وباع الأحمدى باشا الأرض للفلاحين، وباع — كذلك — كل معدات التفتيش من بهائم وركائب وماكينات حرث وري ودراس، حتى السراية والمخازن الضخمة هدمها وباعها أنقاضاً. وكذلك استغنى عن جميع الموظفين والخولة والأسطوات والأنفار، وغادر بعضهم التفتيش، وانقلب بعضهم إلى فلاحين واشتروا أرضاً، والوحيد الذي بقي مُوظفاً هو مسيحة أفندي الذي عهدت إليه دائرة الأحمدى باشا بإمساك حسابات المائتى فدانٍ التي بقيت على ذمة الباشا.

وتَغيَّرت معالم التفتيش تماماً، فلا سراية، ولا إصطبات، ولا إدارة ولا مأمور، ولا مفتش، ولا شَغْيلَة أو خُفَرَاء أو تَمْلِيَة، ولكن مجتمع جديد أصبح هو الموجود، مئات الملاك الصغار يقطنون نفس البيوت التي كانوا يقطنونها وهم أجزاء وفلاحون، مئات الصغار الذين بدأ بعضهم يكبر ويغتنى ويؤجر، وبدأ بعضهم يصغر ويحتاج ويستأجر.

مضت الأعوام وتعاقَّت التغييرات، وانقطع بطبيعة الحال مجيء الترحيلة، ونسىهم الناس تماماً ونسُوا كل ما كان من أمرهم وأمر عزيزة.

كل ما تَبَقَّى منهم ومنها شجرة صَفَصَافٍ قائمة — إلى الآن — على جانب الخليج الذي لم يُغَيِّرُه الزمن، يقال إنها نَمَتْ من العود الذي استخلصوه من بين أسنان عزيزة بعد موتها فطُمس في الطين ونَبَتْ، وكان أن أصبح تلك الشجرة. وأغرب شيء أن الناس لا يزالون يعتبرونها — إلى الآن — شجرة مبروكَة، وأوراقها لا تزال مشهورة، بين نساء تلك المنطقة، كدواء أكيد مُجَرَّب لعلاج عدم الحمل.

(انتهت)

